الطبعة الثالثة

تركي الدخيل

إرم نظارتيك ما أنت أعمى

إنما نحن... جوقة العميان





تركي الدخيل



إرمِ نظارتيك ما أنت أعمى

إنما نحن ...
جوقة العميان

الكتاب: **إنما نحن... جوقة العميان**

المؤلف: **تركي الدخيل**

التصنيف: **مجتمع**

الناشر: **مدارك إبداع، نشر، ترجمة وتعريب**

الطبعة الأولى: فبراير (شباط) 2011
الطبعة الثانية: مارس (آذار) 2011
الطبعة الثالثة: مايو (أيار) 2011

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN 978-9953-566-15-3

صورة الغلاف: ابراهيم صالح بادحدح
www.esob.me

المؤلف: www.turkid.net



الكتاب متوفر على الإنترنت: مكتبة نيل وفرات. www.nwf.com

Madarek مدارك
Creating, Publishing, Translating & Arabizing إبداع، نشر، ترجمة وتعريب

Tel.: 00961 1 282075 - Fax: 00961 1 282074
Gharios Center, Forn Elchebbak, Beirut - Lebanon
www.mdrek.com - read@mdrek.com
P. O. Box: 50074 Forn Elchebbak - Lebanon
سنتر غاريوس، الطابق الرابع، فرن الشباك، بيروت - لبنان

الإهداء

إلى من يُحِيلُ المحنة إلى منحة!

المحتويات

مبدعون... لا مكفوفون!

مهند أبو دية

العميان في التراث والأدب

تقديم

ما منا إلا وعايش قريباً أو صديقاً يعيش في عالم الظلام البصري، كما نقول نحن معاشر المبصرين.

بقيت فكرة فقدان البصر في ذهني، أتساءل كيف يعيش أولئك الذين لا أبصار لهم، هل هم فعلاً يفتقدون أبصارهم؟

أم أننا نحن نُكوِّنُ ذِهنياً رؤيةً محددةً عنهم؟!

وجدتُ أن الإجابة على هذا السؤال تأخذني إلى بحثٍ ممتع في عالم المكفوفين.

قرأتُ تجربة المكفوف من خلال الأفلام التي شاهدتُها، ومن خلال المطاعم التي ترددت عليها، في بريطانيا وفرنسا، وكان من يخدم فيها من المكفوفين، كما ذهبت إلى بشار بن برد والمعري وبورخيس وطه حسين، أقرأ بصيرتهم التي افتقدها أكثر المبصرين،

وخضت في ما تحدثت به العرب عن العميان، وفضائلهم.

استمتعتُ برحلة البحث تلك، كانت خلابةً أحياناً ومحزنة في أحيانٍ أخرى، ولا شيء يحزنني سوى أن المبصرين لا يعرفون قيمة العينين، ولا قيمة البصر، يقصرون في التأمل والقراءة والمطالعة، ويُسرفون في التمييز في أحايين أخرى ضد المكفوفين. وهي شكوى تتصاعد دولياً، لكنّ التقنية صارت تخدم المكفوفين، عبر إنتاج وسائل أخرى للقراءة وأدوات تقنية كثيرة تخصهم. ثم جلستُ مع عبقريٍّ كفيف فقد بصره بسبب حادث سير، هو الشاب السعودي مهند جبريل أبو دية، سِرتُ في عوالمه، وأجريتُ لقاءات معه ومع والده ووالدته، أبانت عن نبله وعن عمق شخصيته، عن فرادة فكره، واتقاد عبقريته، وإيجابيته التي تشبه الهالة التي تنير كل ما حوله، حتى بات هذا الشاب ـ الذي يذكرني بأساطير العباقرة والمخترعين والمبتكرين ـ أيقونة الشباب السعودي في الإنجاز والإيجابية، وتحويل المحنة إلى منحة.

ولذلك استعرت من الشاعر الراحل الكبير، نزار

قباني، جزءاً من قصيدته التي وجهها إلى الراحل الدكتور طه حسين، وجعلته عنواناً لكتابي:

إرمِ نظارتيك ما أنت أعمى

إنما نحن جوقة العميان

لنزار قباني، ولطه حسين، تحية التقدير والاحترام والإجلال، والاعتذار.

في هذا الكتاب حرصتُ على تدوين بعض الخطوط العامة حول المكفوفين، وحول عالم الظلام، فرأيتُ فيه العالم المذهل والساحر الآسر، واتخذت مهند أبو دية النموذج المبدع والكاتب والمخترع ليكون العمود الفقري لهذا الكتاب. عسى أن يكون نبراساً حاضراً لجيل من الشباب المبصرين قبل المكفوفين، ليعلموا أن في الحياة مساحات كبيرة للإبداع، ونوافذ مشرعة للعطاء، تجعل لها معنى، وللعيش فيها قيمة، وللساعة التي نقضيها أثراً لا يشابهه أثر.

إن فقدان البصر لا يعني فقدان البصيرة، وإن يأخذ الله من عيونكم نوراً ففي قلوبكم النور الكبير، وجمال الوجود الكبير.

وكما أن الفقد قد يكون في البصر، فإنه يصبح أشد وأنكى، إذا أصاب الهمة، وضرب العزيمة، والتحذير من هذا النوع من الإعاقة، أعني إعاقة الهمة، هو مقصد الكتاب ولُبُّه، وغايته الأسمى. ولا أوجه الكتاب لأحدٍ، قبل أن أوجهه لنفسي، فأرجو ألا تصيبني إعاقة الهمة، ولا فقدان العزيمة، فالمغبون فيهما أشد الناس غبناً، وإن ظنّ أنه سليم البدن، معافى الصحة، ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ (الأعراف: 179).

في هذا الكتاب رحلة في حدائق المكفوفين المزهرة، حيث يكون الخيال بديلاً عن الواقع، والصورة الحسنة بديلةً عن الصورة السيئة. يكون المكفوفون بمأمن من مشاهدة المساوئ، فقط حين يتخيلون العالم كما يرونه في دواخلهم، لهذا يبدون أنقياء. ويا لله، كم هو في غاية البلاغة حين تتأمل قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ (الحج: 46).

إنما يكون الفخر الحقيقي بالبصيرة التي يؤتاها

الإنسان، الفخر بالعلم الذي يراكمه المرء، الفخر بالتوقد الذي يحظى به، الفخر بالعزيمة التي تصبح ناراً تضطرم في نفس صاحبها فلا يقبل بمنزلة الخاملين، ولا مراتب الكسالى، وما أحلى ما قاله الطغرائي في لامية العجم:

قد رشحوك لأمرٍ إن فطنتَ لهُ

فاربأ بنفسكَ أن ترعى مع الهَمَلِ

لا يكون الفخرُ أيها السيدات والسادة بعيونٍ غير مستثمرةٍ، تكون هائمة في يباب التفاهة والانشغال بصغائر الأمور.

قال أحدهم لبشار بن برد: ما أذهب الله كريمتي مؤمن إلا عوضه الله خيراً منهما، فبمَ عوضك؟ قال: بعدم رؤية الثقلاء مثلك!

هنيئاً لكل مكفوف ببصيرته التي أعطاها الله له في قلبه وفكره وذاكرته، أنتم درسٌ نتعلم منه.

تركي الدخيل



30 يناير (كانون الثاني) 2011
تورنتو، كندا

مدخل إلى العذاب!

«العذاب ليس له طبقة...

الذي يسكن في أعماق الصحراء، يشكو مُرّ الشكوى، لأنه لا يجد الماء الصالح للشرب.

وساكن الزمالك، الذي يجد الماء والنور والسخان والتكييف والتليفون والتلفزيون، لو استمعت إليه لوجدتَه يشكو مُرّ الشكوى، هو الآخر، من سوء الهضم والسكر والضغط.

والمليونير ساكن باريس، الذي يجد كل ما يحلم به، يشكو الكآبة والخوف من الأماكن المغلقة والوسواس والأرق والقلق.

والذي أعطاه الله الصحة والمال والزوجة الجميلة، يشك في زوجته الجميلة، ولا يعرف طعم الراحة.

والرجل الناجح المشهور والنجم، الذي حالفه الحظ في كل شيء، وانتصر في كل معركة، لم يستطع أن ينتصر على ضعفه، وخضوعه للمخدر، فأدمن الكوكايين، وانتهى إلى الدمار.

والملك الذي يملك الأقدار والمصائر والرقاب، تراه عبداً لشهوته، خادماً لأطماعه، ذليلاً أمام نزواته.

وبطل المصارعة، أصابه تضخم في القلب، نتيجة تضخم في العضلات.

كلنا نخرج من الدنيا بحظوظ متقاربة، برغم ما يبدو في الظاهر من بُعد الفوارق.

وبرغم غنى الأغنياء، وفقر الفقراء، فمحصولهم النهائي من السعادة والشقاء الدنيوي متقارب.

فالله يأخذ بقدر ما يُعطي، ويُعوض بقدر ما يحرم، ويُيَسر بقدر ما يُعَسِّر... ولو دخل كل منا قلب الآخر لأشفق عليه ولرأى عدل الموازين الباطنية برغم اختلال الموازين الظاهرية... ولما شعر بحسد ولا بحقد ولا بزهو ولا بغرور.

إنما هذه القصور والجواهر والحلي واللآلئ مجرد ديكور خارجي من ورق اللعب... وفي داخل القلوب التي ترقد فيها تسكن الحسرات والآهات الملتاعة.

والحاسدون والحاقدون والمغترون والفرحون، مخدوعون في الظواهر غافلون عن الحقائق.

ولو أدرك السارق هذا الإدراك لما سرق، ولو أدركه القاتل لما قتل، ولو عرفه الكذاب لما كذب.

ولو علمنا حق العلم، لطلبنا الدنيا بعزة الأنفس، ولسعينا في العيش بالضمير، ولتعاشرنا بالفضيلة، فلا غالب في الدنيا، ولا مغلوب في الحقيقة، والحظوظ كما قلنا متقاربة في باطن الأمر، ومحصولنا من الشقاء والسعادة متقارب، برغم الفوارق الظاهرة بين الطبقات... فالعذاب ليس له طبقة، وإنما هو قاسم مشترك بين الكل... يتجرع منه كل واحد كأساً وافية، ثم في النهاية تتساوى الكؤوس، برغم اختلاف المناظر وتباين الدرجات والهيئات.

وليس اختلاف نفوسنا هو اختلاف سعادة وشقاء، وإنما اختلاف مواقف... فهناك نفوس تعلو على شقائها،

وتتجاوزه، وترى فيه الحكمة، والعبرة، وتلك نفوس مستنيرة، ترى العدل والجمال في كل شيء، وتحب الخالق في كل أفعاله... وهناك نفوس تمضغ شقاءها، وتجتره، وتحوله إلى حقد أسود، وحسد أكّال... وتلك هي النفوس المظلمة الكافرة بخالقها، المتمردة على أفعاله.

وكل نفس تمهد بموقفها لمصيرها النهائي في العالم الآخر... حيث يكون الشقاء الحقيقي... أو السعادة الحقيقية... فأهل الرضا إلى النعيم، وأهل الحقد إلى الجحيم.

أما الدنيا فليس فيها نعيم ولا جحيم، إلا بحكم الظاهر فقط، بينما في الحقيقة تتساوى الكؤوس التي يتجرعها الكل... والكل في تعب.

إنما الدنيا امتحان لإبراز المواقف... فما اختلفت النفوس إلا بمواقفها، وما تفاضلت إلا بمواقفها.

وليس بالشقاء والنعيم اختلفت، ولا بالحظوظ المتفاوتة تفاضلت، ولا بما يبدو على الوجوه من ضحك وبكاء تنوعت.

فذلك هو المسرح الظاهر الخادع.

وتلك هي لبسة الديكور، والثياب التنكرية التي يرتديها الأبطال، حيث يبدو أحدنا ملكاً، والآخر صعلوكاً، وحيث يتفاوت أمامنا المُتخم والمحروم.

أما وراء الكواليس، أما على مسرح القلوب، أما في كوامن الأسرار، وعلى مسرح الحق والحقيقة، فلا يوجد ظالم ولا مظلوم لا مُتخم ولا محروم، وإنما عدل مطلق، واستحقاق نزيه، يجري على سنن ثابتة لا تتخلف، حيث يمد الله يد السلوى الخفية، يحنو بها على المحروم، ويُنير بها ضمائر العميان، ويُلاطف أهل المسكنة، ويؤنس الأيتام، والمتوحدين في الخلوات، ويعوّض الصابرين، حلاوة في قلوبهم، ثم يميل بيد القبض والخفض، فيطمس على بصائر المترفين، ويُوهن قلوب المتخمين، ويُؤَرّق عيون الظالمين، ويُرهل أبدان المسرفين، وتلك هي الرياح الخفية المنذرة التي تهب من الجحيم، والنسمات المبشرة التي تأتي من الجنة، والمقدمات التي تسبق اليوم الموعود، يوم تنكشف الأستار، وتهتك الحجب، وتفترق المصائر، إلى شقاء حق، وإلى نعيم

حق... يوم لا تنفع معذرة... ولا تُجدي تذكرة.

وأهل الحكمة في راحة، لأنهم أدركوا هذا بعقولهم، وأهل الله في راحة، لأنهم أسلموا إلى الله في ثقة، وقبلوا ما يجريه عليهم، ورأوا في أفعاله عدلاً مطلقاً، دون أن يتعبوا عقولهم، فأراحوا عقولهم أيضا، فجمعوا لأنفسهم بين الراحتين، راحة القلب، وراحة العقل، فأثمرت الراحتان راحة ثالثة، هي راحة البدن... بينما شقي أصحاب العقول بمجادلاتهم.

أما أهل الغفلة، وهم الأغلبية الغالبة، فما زالوا يقتل بعضهم بعضاً، من أجل اللقمة والمرأة والدرهم وفدان الأرض، ثم لا يجمعون شيئاً، إلا مزيداً من الهموم، وأحمالاً من الخطايا، وظمأً لا يرتوي، وجوعاً لا يشبع.

فانظر من أي طائفة من هؤلاء أنت... وأغلق عليك بابك وابكِ على خطيئتك»[1].

(1) الدكتور مصطفى محمود رحمه الله، من كتابه «أناشيد الإثم والبراءة»، دار المعارف، الطبعة الثانية، ص 39 ـ 43.

تجربتي في عالم الظلام

«لا شيء مثل التجربة، يجعلك تسترجع مقولات تعلمتها في صباك، دون وعي حقيقي لها».

1 ـ عالم الأسرار... لا عالم الظلام:

مذهل هو عالم الظلام، تعرفت عليه من خلال المكفوفين الذين عايشتهم، ومن خلال مشاهداتي السينمائية وقراءاتي في الرواية والأدب والتراث. تساءلت كثيراً، هل نعرف عالم المكفوفين؟ أو هل حاولنا التعرف عليه؟ وهل نحن معاشر المبصرين نبصر الأشياء فعلاً؟!

يذكر الممثل «آل باتشينو»، في لقاءٍ له أنه وقبل أن يشرع في آداء شخصية الكفيف في فيلم: «Scent of a Woman» (أنتج في 1992)، وحصل من خلاله على جائزة أوسكار، انضم إلى معهد: «Light House» لرعاية المكفوفين ليتعلم ـ ليس فقط كيف يتحرك الأعمى ويتعامل مع الأشياء ـ بل كيف يفكر الأعمى وبماذا يشعر؛ يقول: «تعلمت هناك كيف لا أسمح لعيني بالتركيز على أي شيء وقد أثر ذلك كثيراً على ظهور الدور بذلك الشكل الملفت».

لم يتعامل مع شخصية الكفيف وعالمه على أنه عالم فقدان حاسّة؛ لم يتعامل بهذه السطحية مع عالم الظلام المثير للدهشة، الذي يعيشه الكفيف. هذا هو فرق آداء شخصية الكفيف بين ممثل حاز على الأوسكار على دور الكفيف الذي أدّاه في ذلك الفيلم، وبين مسلسلات العرب التي تنتهك قدسية حالة الكفيف، وتظنّ أنه مجرد رجل يحمل عصاه بيده وعلى عينيه نظّارة سوداء. كان آل باتشينو في فيلمه غاية في إتقان الأداء وروعة التقمص والإحساس. تردد لأشهر على معهد المكفوفين، فدخل عالمهم الحقيقي، لهذا عرف حقاً بماذا يشعر الكفيف.

من أكثر الأماكن التي تبيّن عالم المكفوفين، وتجعلك أكثر قدرة على استيعاب إحساسهم وحياتهم أن تزور مطعم «Dans le noir»، وهو اسم المطعم باللغة الفرنسية، وترجمته بالعربي تعني «في الظلام الدامس»، وقد ترددت على المطعم مراراً، بغية استكشاف التجربة، وفي محاولة لعيشها والإحساس بها.

غشيتُ هذا المطعم، الذي تخوض من خلال زيارته تجربة عالم المكفوفين، خمس مرات، في مدن مختلفة.

وقد قادتني التجربة المتكررة، إلى أن من غير المناسب أن تذهب إليه مع أكثر من صديقين، ولو كانوا من المقربين لك نفسياً، فذلك يمكن أن يُفسد التجربة. فالكثرة تُضعف فُرص التأمل، ويمكن أن تؤدي إلى كثرة الضجيج، وربما يستدعي الجمع ضحكة، فيجر الضحك بعضه بعضاً، وتكون أردتَ أن تستفيد من التجربة بالتأمل والتفكر، في عالم لم تعتد على خوضه، فتجد نفسك سادراً في غيِّك، بعيداً عن التَبَصُّر في هذه العوالم الملهِمة. العدد الكبير من المعارف أو الأصدقاء يشغل الناس ببعضهم، وبتفاصيلهم، ويحرمهم من متعة الاستكشاف، والتعرف على حياة جديدة، وجميلة.

ذات مرة، دخلنا المطعم، وفور الدخول قادتنا النادلة الكفيفة «نايا». كانت تبدو عليها سيماء الهدوء والبراءة، تقودك ببطء إلى مكانك، تصبح حينها كفيفاً مثلها، بل تصبح رهن الطريق الذي ترسمه لك بفضل بصيرتها؛ تجلس ثم تبدأ بتذوق الأكل الذي قدموه لك كما يتذوقه الكفيف. الفريد والاستثنائي في التجربة أنها تنقلك من عالم الإبصار إلى عالم الظلام الدامس.

تصبح أكثر حميمة مع عالم الكفيف، مع حالة الظلام التي تجتاحك. صاحب المطعم: «إدوار دي بروغلي» يعتبر: «أن الجلوس في الظلام يوقظ الحواس، ويغير إدراكك للأمور، وعلاقتك مع الآخرين، ويظهر لك ماذا يحدث عندما تعجز عن الرؤية». وقد صدق؛ ولولا أن البعض من المستهترين والسطحيين يأخذون هذه التجربة كوسيلة للضحك بالصوت العالي والصراخ، والسخرية والقهقهة، لكانت تجربة الزائر أغنى وأكثر توغلاً.

في فيلم «The Book of Eli» لدينزل واشنطن، تدخل عليه الفتاة المكفوفة، فيسألها: هل أنتِ مبصرة، فتجيبه أن لا، فيردّ عليها: من الرائع أنك لم تشاهدي هذا العالم.

العمى ليس عائقاً، وليس مرضاً، وليس عيباً، إنه شكل آخر لرؤية العالم، بل إن الظلام أكثر نوراً من نور الإبصار، وفي القرآن: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ (الحج: 46).

وما منا إلا وفيه نسبة من عمى، من عمى البصيرة والتخبط في إبصار الأمور، لهذا أنشد المعري:

أنا أعمى فكيف أُهدى إلى المنـ
ـهج والناسُ كلهم عُميان؟!
والعصا للضَّريرِ خيرٌ من
القائدِ فيهِ الفُجُورُ والعِصيانُ

2 ـ التجربة خير برهان:

التجربة خير برهان، وتجربة أن تكون كفيفاً لبعض الوقت، ليست في أن تغمض عينيك لدقائق، بل أن تمارس طقساً من الطقوس وأنت خارج النور. إن أكثر ما يجعل الدنيا تبدو أكثر إثارة ومتعة، هو خوض تجارب جديدة في غمار هذه الحياة. في مطعم «في الظلام الدامس»، يكون الانقياد فيه للعميان والمكفوفين، دون غيرهم، فلهم القدح المُعلى، في القيادة. في هذا المطعم، يقوم بالخدمة والضيافة المكفوفون فقط، دون غيرهم من المبصرين، رؤية لا بصيرة، بالضرورة.

فكرة المطعم تقوم على انقسامه إلى قسمين رئيسيين: أولهما مضاء، والثاني في غياهب العتمة. التجربة تعزز إحساسك بالحياة التي يعيشها المكفوفون والعميان، فأنت تدلف بين ستارتين من القسم المضاء، إلى حيث العتمة الدامسة بقيادة نادل أو نادلة يستضيئان

بنور البصيرة، لا البصر، حتى إذا ادلهم السواد الكالح، فلم تستفق لبصرك قدرة على إبصار، وتتعثّر في خطاك لأنك اعتدت ألا تقودك إلا عيناك، تخالك طفلاً يتعلم السير للمرة الأولى، فتوقفك النادلة الكفيفة على ضفاف مقعدك الذي لن تجلس عليه قبل أن تتلمسه لتتأكد منه.

يُشيرون عليك أنك ستجد أمامك طبقاً فارغاً ومنديلاً وسكيناً وشوكة، فاكتشفها باللمس، واسكب لنفسك من قارورة الماء، في كأسك الفارغة، دون أن يكون النظر قائدك لمعرفة امتلاء الكأس، بل بوضعك أحد أصابعك في وسط الكأس لتعلم بموافاة السائل أعلى القدح عبر لمسه بالإصبع. إنك تتعلم كيف تستكشف حواساً تحسبها جديدة عليك، فأنت تحاول أن تتعرف على الطبق الذي تأكله بالذوق، لا بالنظر، ولا بمعرفتك المسبقة أنك ستأكل هذا الطبق أو ذاك. حقاً إنك تودع الكثير من عالم الصور النمطية الجاهزة!

لا شيء مثل التجربة يجعلك تسترجع مقولات تعلمتها في صباك، دون وعي حقيقي لها. ولذلك فأنا لم أعرف قيمة المثل العربي الشهير: «الصحة تاج على رؤوس

الأصحاء، لا يعرفه إلا المرضى»، إلا يوم عمدت لاستكشاف تجربة جديدة مثل هذه بيدي.

في أمثالنا: من جرّب عرف، ومن عرف غرف؛ والحديث عن الأشياء دون تجربتها، يفقد الكثير من حقائق المعنى، ودقائق الصدق، ولذلك فقد كانت تجربة ثرية، وجديرة بالتأمل.

لماذا لا نعرف مشاكل الآخرين، ومعاناتهم، إلا عندما نعيشها؟!

3 ـ أبو العلاء المعري في باريس:

أثبتت لي باريس، حيث ذاك النور الغارق في الظلمة، وحيث المطعم الذي يديره المكفوفون، أن أبا العلاء المعري، كان يعني معنىً غير المعنى الظاهري لبيته الشعري الشهير، عندما قال:

أعمى يقود بصيراً لا أبا لكمُ

قد ضلَّ من كانت العميان تهديهِ

أو أن المعري قد أخطأ خطأً بيناً في بيته الشعري الجميل الصورة، دون أن يمتد الجمال إلى معناه، وبالذات بعد تجربتي التي سأحكي لكم عنها والتي تمت قبيل نهاية العام 2006، مع صديقي عماد العبد القادر، الذي كان يقيم حينها في عاصمة النور، وهي بالفعل باتت عاصمة للنور، لا لجهة قيادتها خلال تاريخها الأخير للحركات التنويرية فحسب، بل لأن شوارعها وأشجارها ازدانت بالأنوار التي جعلت ليلها مميزاً وهي

تستقبل العام 2007. عرض عليّ عماد، الذي يقوم بدور المرشد السياحي، لي في باريس، باحترافية وإتقان، وخلفية تاريخية وعلمية وفنية وعسكرية، أن نتناول وجبة في مطعم غريب تقدم فيه الوجبات في الظلام الدامس، كما هو اسم المطعم (في الظلام)! وقبل أن أقذف بسيل من الأسئلة على محدثي، بادرني: يقوم بتقديم الخدمة في المطعم مجموعة من المكفوفين من الجنسين، والفكرة في القصة كلها أن يُحس المبصرون بحياة العميان، ولو مؤقتاً، فيتناولون وجباتهم، ولا يتركون لرؤية الأطباق فرصة في تحديد قبولهم ورفضهم للطبق، فالعمدة تكون هنا للطعم فقط.

أعجبتني الفكرة، ونفذناها في اليوم التالي، لأننا كنا بحاجة إلى إجراء حجز مسبق. عندما دخلنا الجزء المضاء من المطعم قبل أن ندخل إلى حيث موائدنا المتشحة بالظلمة، عرضوا علينا التعليمات التي يجب أن نتقيد بها، فنحن سنتجاوز ستارتين سوداوين قبل أن ندخل إلى قاعة مظلمة تماماً، ويجب علينا أن نضع هواتفنا المحمولة، ومعاطفنا وقداحات المدخنين، في صناديق خاصة بالزبائن، عند الجزء المضاء من

المطعم. نترك جوالاتنا لأن أجهزة الهاتف تصدر إنارة يمكن أن تؤثر في العتمة المطلوبة، أما المعاطف فوضعها على الكراسي قد يسبب سقوط الكراسي إلى الخلف، وبالتالي إحداث فوضى وأضرار بالمكان، والقداحة تضيء حيث لا يجب أن يكون ضوء ولو كان باهتاً، ناهيك عن منع التدخين.

قائمة الطعام، قبل أن تُقدّم، يُقال لك: إن شئت أن تُمعن في هذه التجربة، باتجاه المفاجأة وتعزيز الاكتشاف، يمكنك أن تترك لنا أن نختار طبقاً من المقبلات، وطبقاً رئيسياً لك، وطبق حلوى إن شئت، دون أن تعرف ما سنقدمه لك، لتستكشفه عندما تتناوله، فقط حدِّد لنا ما لا تأكله، حتى لا نقدمه لك. قالت المضيفة المبصرة، وأضافت: تأكدوا أننا لن نقدم لكم أشياء مقززة. لا حشرات، ولا عيون ولا آذان! نحن نقدم في هذا المطعم طعاماً كما تأكلون كل يوم، وكما يقدم زملاؤنا في المطاعم الأخرى، غير أننا نراهن على تميز ولذة طعامنا، وسترون في النهاية. إذا أردتم أن تختاروا بأنفسكم طعاماً محدداً فها هي القائمة دونكم.

اخترنا المفاجأة، وطلبنا منهم أن يختاروا لنا.

4 ـ الأعمى يقودني بدقة:

أشرفنا على مدخل الجزء المعتم من المطعم، فقدموا لنا فتاة فرنسية من أصل جزائري، مكفوفة، في العقد الخامس من عمرها، تدعى فازية! سألتها بالعربية: هل اسمك فايزة، أم فازية؟! أجابتني بالفرنسية: أنها لا تتقن العربية، لكنني فهمت أنها تعرف أنها فازية، وربما كانت، فايزة!

قالوا لنا إننا سنمضي تحت قيادة فازية، بأن يضع كل منا يده اليسرى على كتف الشخص المقابل له، أما أيدينا اليمنى فقد حمّلونا فيها كوباً من الكوكتيل الأصفر، وقالوا لنا: عليكم أن تكتشفوا أي نوع من العصير أوالفواكه هذا الذي تتذوقونه.

قبيل الدخول، شددوا علينا أن نخفض أصواتنا، فالإنسان في العادة يرفع صوته ليثبت حضوره في الظلام، لأنه يعتقد أن من حوله لا يراه، فهو يريد أن

يحضر بصوته المرتفع عند أصحابه. قالوا: إن التجربة تفقد الكثير من معانيها بالصوت المرتفع، وتذكرت توجيه لقمان الحكيم لابنه بخفض صوته عندما قال له: ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ (لقمان: 19). تُرى لمَ قرَن لقمان ارتفاع الصوت بنهيق الحمير الذي تبغضه النفوس؟! ليس هذا موضوعنا، خاصة وأنا أقبل على تجربة جديدة يلزمني أن لا أشتت ذهني بما يرد عليه مما هو ليس موضوع التجربة الرئيسي!

وضع أولنا يده على كتف نادلتنا الجزائرية الأصل، وسِرنا في طابور يشبه طوابير الأطفال. كانت ابتسامة فازية الهادئة، أول رُسل احترامها للآخرين. وفق ضرورة إقامة علاقة احترام متبادل، يمكن أن تكون أحد أسس الحياة المعتدلة، ومع أن عينيها كانتا مغلقتين وغائرتين قليلاً إلى الداخل، إلّا أن الابتسامة كانت تكسبها جمالاً شفافاً مريحاً.

هذه الابتسامة، كانت آخر عهدي بالضوء قبل تُسيطر علينا ظلمة المكان. كُنا نسير بتؤدة، مضينا نحو عشرين

خطوة، بما أحسبه يعادل سبعة أمتار، ثم طلبت منا قائدتنا أن نتوقف.

كان عماد، فأنا، فرجل ثم زوجته. لم يتسنَّ لي رؤية الرجل ولا زوجته، مع إن اسميهما غشيا سمعي فيما أحسب، وتبينتهما في مشينا، فقد كانت فازية تهمس بين خطوة وأخرى بأسمائنا الأربعة، لتتأكد أننا نمضي تحت لواء قيادتها بخير وعلى خير.

5 ـ والأذن تعشق... قبل العين أحياناً:

بعد الستارة الثانية، لم يكن هناك أي ضوء في المكان، حتى ولو كان خافتاً!

لم يكن هناك سوى أصوات أحاديث تصعد إلينا!

لماذا كانت تصعد صعوداً؟!

ببساطة، لأننا كنا وقوفاً، والمتحدثون جلوس إلى موائدهم التي تفيض سواداً وكأنها اتشحت بالداكن تعبيراً عن حزن داهم.

في الخطوات الأولى، كدت أتعثر، ليس لأن قدميّ تصادمتا ببعضهما البعض، أو حتى بغيرهما، فقد كانت خطواتي مترددة في الداخل، لكنها تبدو للآخر ـ لو قُدّر لهذا الآخر أن يرى في هذا السواد الحالك ـ كخطوات من يمشي في «مارش» عسكري!

كيف يجتاحُنا سلوك مناقض تماماً لدواخلنا أحياناً؟

كيف تتناقض صورتنا الداخلية التي نحسها ونعيشها مع الصورة الخارجية التي نبدو عليها، وتظهر للآخرين؟!

لستُ أدري... لكن القرار، هنا، بات لغير الصورة، ربما للمرة الأولى في حياتي!

هل قام السمع والعقل والإحساس، بانقلاب على منطق الصورة والرؤية والإبصار بالعين، قبل قليل؟!

وكيف تعاطت عيناي مع إزاحتها ـ بملء إرادتي ـ عن كرسي القرار، وسلطان التحكم بردود الأفعال، وتقدير الأشياء المبدئي؟!

أحسب أن عينيّ تجولتا في المكان من أقصى يمين المشهد البانورامي لها حتى أقصى يساره، ومن أعلاه إلى أسفله، وعندما لم تريا جديداً يمكنهما اكتشافه والتعاطي معه، انكفأتا على نفسيهما!

أغلقت عينيّ برهة، ثم فتحتهما أخرى. فعلت ذلك بضع مرات، وكأني أُعيدُ تشغيل جهاز حاسوب تعطلت قدراته فجأة، بغية أن يعود إلى سابق قدراته قبل أن يتجمد، وأحاول إذابة جموده بالضغط على زر Restart!

عندما لم تستطع عيناي استعادة عرشهما... تأقلمتا مع الوضع، وكأن شيئاً لم يكن، ولم أغلقهما بعد ذلك، إلا من أجل أن أرمش، بتصرف لا إرادي!

استغرق ذلك، بضع خطوات خلال السير في المكان المعتم، في ذات الطابور، خلف نادلتنا الكفيفة فازية، التي باتت الآن بالفعل سيدة للموقف، فهي، هنا، تتميز بمعرفة وخبرة، وتضيف عليهما ألفة كبيرة، مع الأجواء والمكان... والظلمة.

أوقفتنا فازية بعد برهة، واخترقت نظام طابورنا، وكرّت سبحته، عندما أخذت الرجل الذي كان يقف هو، فزوجته، خلفي، إلى مكان آخر، ثم جعلتني إلى يمين صديقي ورفيق تجربتي اليوم عماد، ووضعت يد كل منا على كرسي، وطلبت منا أن نتحسسه قبل الجلوس عليه، إلى طاولة أمام كل منا.

قالت لنا: لو وضع كل منكم يده برفق إلى الطاولة، لوجد إلى يسارها شوكة، وإلى يمينها سكيناً، وبينهما منديل، وأمامك كأسان إلى اليمن في نفس جهة السكين الأمامية، أحدهما أصغر من الآخر. الكبير فيهما للماء،

والصغير للمشروب الذي تختارونه.

مرحباً بكم من جديد في مطعمنا، وأهلاً بكم إلى عالمنا، نحن المكفوفين.

هكذا، كانت هذه الجملة، إيذاناً، بل إعلانٌ بأننا دخلنا مملكة المكفوفين، ولو مؤقتاً!

وضع كل منا كأس عصير الكوكتيل أمامه، ورحنا نتلمس الأشياء أمامنا.

كنتُ مستعجلاً على اكتشاف الأشياء، وجعلتني العجلة أتخلى عن وصية فازية بالرفق في التلمس، ولما تصافقت الكؤوس الفارغة بكأس العصير، علمت أن الهدوء ضروري في التعاطي مع كل أمر جديد، حتى اكتشافه والاعتياد عليه، على الأقل.

وضعتُ المنديل على فخذي، وأنا أتساءل: هل سأعاود ممارسة السلوك الطفولي، بإسقاط شيء من الطعام عليّ، بعد قليل، وأنا أتناول لقيماتي، التي أجهل كنهها؟!

جلس عماد إلى يساري، وبدا لي أن السيدة التي

جلست أمامي، وإلى يمينها ـ من الجهة المقابلة لعماد ـ جلس زوجها. تأكدتُ من ذلك، عندما عرّفتها باسمي، فقالت لي: إنها وزوجها كانا يسيران معنا إلى المائدة المظلمة!

الزوجان، أميركيان، يقيمان منذ أكثر من عشر سنوات في باريس، ويتحدثان الإنجليزية بطلاقة. أتحدثُ عن اللغة، لأني كنتُ أخشى أن نجلس إلى من لا يتحدث إلا الفرنسية فقط، فلا أعرف من كل قصة إلا ما يترجمه لي شريك التجربة، عماد، والحق أنه كان كريماً متجاوباً معطاءً كعادته.

يبدو أن القائمين على القاعة المضاءة في المطعم حرصوا على تنسيق الداخلين ليتحدثوا بلغة مشتركة.

عادة ما تجلس إلى الكرسي المقابل لرفيقك في المطاعم التقليدية، حتى تكون في مرمى رؤيته وإبصاره، لكن المكان الذي يتخذ السمع فيه القرار، وليس البصر، يكون المناسب لجليسك الكرسي الجانبي، وليس المقابل. حقاً، لكل زمان دولة ورجال وكراسي!

ألم يقل بشار بن برد قديماً:

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة

والأذن تعشق قبل العين أحياناً؟!

أظن من لا يعلم أن بشار كان كفيفاً، سيظنه وقع على صوت محبوبته عبر اتصال هاتفي خاطئ!

بالتأكيد، كان بشّار يعشق بأذنه دائماً، وليس أحياناً، كما نحن في هذه التجربة، حيث السيادة فيها سمعية مطلقة.

بعد برهة، أحضرت النادلة الرقيقة فازية زجاجتين وأعطتهما لعماد. قالت إن أحداها زجاجة ماء، والأخرى مشروب غازي، وعلينا أن نسكب لأنفسنا في أقداحنا مشروباتنا!

مدّ عماد لي إحدى الزجاجتين، فأخذتها بيدي اليسرى، التي كانت الأقرب إليه، وتناولت القدح الفارغ الكبير بيدي اليمنى.

في المجتمعات العربية بخاصة، نبدو يمينيين في عاداتنا بعض الشيء!

ويرى الغالبية أن تقديم الأشياء للآخرين لا يكون إلا

باليمنى، وهكذا يجب على الآخر ألا يتناولها إلا باليمنى، ويمضي العرب باتجاه جعل استخدام يدك اليمنى مع غيرك تكريماً له، وفي المقابل فإن استخدام اليسرى تصغير له، ويحمل احتقاراً لا يمكن قبوله.

لذلك فإنك تجد من يسكب القهوة العربية للضيوف ممسكاً الدلة في يده اليسرى والفنجان في اليمنى، حتى إذا ملأه بالقهوة قدّمه مُرّحباً بضيفه.

وفي الحالات التي لا يتسنى للبعض استخدام اليد اليمنى في التسليم أو الاستلام، فإنه يعتذر عن ذلك بقوله: «شمالٍ ما تشناك»، أي أن استخدام اليسرى لا يحمل قصد الانتقاص من حقك. فيرد الآخر: «شمالك يمين». أي أن يسراك من فضلك كيُمناك.

عندما تناولت الزجاجة من عماد باليسرى، حضر الموروث الاجتماعي فجأة، قلت له: «شمال مِا تشناك». فرد ساخراً: هل كنت تتصور أني سأهتم بيمينك وشمالك في هذه العتمة، قدر اهتمامي بأن لا تسكب علي شيئاً في هذا الظلام. ثم ضحكنا من الأعماق.

كان صاحبي يعني أن الاكتشاف ومحاولة التأقلم هما

الطاغيان الآن، وسنتفرغ للموروث عندما يتسنى لنا معرفة المكان والأنس فيه.

كان عليّ أن أُمسك بالقنينة من فوهتها العليا، بعد أن أضع إبهامي على شَفَتِها للتأكد من مصدر خروج المشروب، وقد قرّبتُ الكأس حتى التماس مع الزجاجة، فلما تيقنتُ من أن فوهة الزجاجة باتت في قلب الكأس، بدأتُ أسكبُ بهدوء، وقد غمستُ طرف إبهامي الأيمن في داخل الكأس، وأنا ممسك بها، حتى أعلم أن الكأس امتلأت عندما يطفو السائل ويلامس إصبعي.

كانت هذه الأحداث، تجري على مرمى شبر من أذني اليمنى التي وضعتها إلى جانب عملية سكب المشروب، لتساعدني على التعرف على إجراءات هذه الآلية بسلام.

وبالفعل، اكتشفت أني أسكب المشروب الغازي في كأس الماء الكبير، بالنظر إلى سماعي تفاعل الغازات مع بعضها، وكأن كل وحدة منها تتصارع مع أختها، في سبيل السيادة، حتى تخور قوى الجميع، فيحيلها الصراع إلى صرعى، هدوءاً وسكينة، وتحولاً إلى وحدات مختلفة،

تعرف كيف تتعايش مع بعضها!

عندما امتلأت كأسي، وعلمت بأني سكبتُ مشروباً آخر في كأس الماء الخاص بي، لم أخبر أحداً، وأعترف أني صمتُّ، استناداً إلى أن أحداً لن يسوءه خرقي الفاضح، هذا، للبروتوكول!

الحقيقة أني لم أكتفِ بذلك، بل لقد أردت أن أعلن عن نجاحي في التجربة، بشكل غير مباشر، فطلبتُ من جاري أن يناولني كأسه، لأسكب له من هذه الزجاجة، باحترافية عالية!

هل كنتُ في كل ما أفعله منساقاً بدافع «اللا وعي»؟!

أحسبني كذلك.

قال لي عماد إنه سكب على طاولته شيئاً من الماء أثناء محاولته ملء كأسه، فحاولت تطمينه، بقولي: لا تقلق، فالماء طاهر في نفسه، مطهر لغيره! وأضفتُ: تعمل هذه القاعدة بشكل جيد، خصوصاً إذا كنت لم تهرق كمية كبيرة من الماء بالخطأ، ولم يصبك الماء بأذى في ثيابك. ثم ضحكنا من جديد!

بعد ذلك أخبرته بطريقتي عن استخدام الإبهامين لقياس كمية المسكوب من الزجاجة، وامتلاء الكأس بالسائل، وأشرتُ إلى نجاح هذه الطريقة حتى الآن، فاستحسنها، وعمل بها.

6 ـ خرق فاضحٌ... للأتيكيت:

كانت الأصوات تتعالى من وقت لآخر، فيطلب أحد المسؤولين في المطعم من العملاء أن يخفضوا أصواتهم، تأكيداً على أن لا يحاول المرء أن يعوِّض بالصوت المرتفع، ما فقده من سلطة البصر.

بعد دقائق جاءت النادلة بطبق المقبلات، وسلّمت كلاً منّا طبقه بيده، بعد أن لمست ظهره، للتأكيد على إنها تحمل معها طبقاً. وضع كلٌّ منا طبقه أمامه، وأمسكنا بالشوكة والسكين وكلنا شوق لاكتشاف ما يحمله كل طبق.

بدأت أحاول اكتشاف المادة التي يحتويها طبقي من خلال قدرة السكين على امضاء القطع، فاكتشفت أن الطبق يحتوي على شيء من الجبن. ومع الاستطعام تبين لي أنها جبنة غنم، بالإضافة إلى خضار مطبوخ، فيه جزر، وقطع من باذنجان، وأخرى من الكوسا، على أغلب الظن.

مع الوقت اكتشفت أن قدرة الشوكة والسكين على القيام بعملية الإطعام كما يجب. وضعتهما جانباً، واستخدمت يدي. هل أقول لكم إني حاولت النظر يميناً ويساراً، وكأن أحداً سيرمقني بعين الناقد، وأنا أستخدم يدي في الأكل، في خرق فاضح للإيتيكيت!

عندما تتذوق الطعام وأنت لا تراه، سيكون التذوق مختلفاً، فأنت تعطي التذوق فرصة أكبر، وعقلك ينتظر إشارة من فمك ليعلن عن ما هية الطعام أولاً، قبل الحكم على جودته وإتقان طهيه.

الحقيقة أن الطعام كان شهياً، ومع أنني لم اكتشف بعض مكونات طبقي، بمعنى أني لم أتعرف عليها، إلا أني أجزم بأن طعمها كان مستساغاً، بل لقد كانت طيبة.

كان تلمس الطبق، هو المنهج المتبع في محاولة الأكل، حتى معرفة هل انتهى الطبق أم لا؟!

بعد أكل لقيمات قليلة، تحاول أن تعلن لصديقك أنك استطعمت طعامك واكتشفت كنههُ معلناً عن مكوناته ما استطعت.

بعد نحو عشر دقائق تقريباً، جاءت النادلة بالطبق الرئيسي، واستبدلنا الأطباق، فوضعنا الأطباق الجديدة، وسلّمناها الأطباق الفارغة.

عدنا لعملية الاكتشاف من جديد، وحاولت أن استخدم الشوكة والسكين مجدداً، فكررت السيناريو مرة أخرى، لقيماتٍ بالشوكة والسكين، ثم عدم الإيمان بجدواها، فالعودة إلى الطبيعة، واستخدام اليدين، ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ (طه: 55).

كان في الطبق لحمٌ، وكان ليناً جداً، وذا طعم طيب. بدا لي أنه لحم غنم، بالإضافة إلى أرز، وخضار متنوعة، لم أعرف كل أنواعها.

عندما خرجنا، فركنا أعيننا، ونحن مستكرهون الإضاءة، فكأننا اعتدنا العتمة، أو كأننا ألفناها.

قبل أن نحاسب، أرانا القائمون على المطعم، طعامنا، تبين أن ما ظننته لحم غنم كان وجنة وعل!

قال لي عماد، وهو يترجم لي الوعل من الفرنسية:

كناطحٍ صخرةً يوماً لِيُوهِنَها

فلم يضِرْها وأوهى قرنه الوعلُ

خرجتُ من المطعم، وقد ملأ التأمل جوانحي، وكست التجربة نفسي. أحسست بأنها تجربة تهزني هزّاً؛ تجربة مدهشة تجعلك تعترف أن ما يبدو لك ـ أحياناً ـ أنك تعرفه وتدرك قيمته، هو منتهى الجهل، ولُبّ الغرور.

كانت تجربةً لا تُنسى، وسأحرص على تكراها مراراً، لأنها أبانت عن الجانب المظلم فينا معاشر المبصرين.

مبدعون... لا مكفوفون!

«بعض الفن يكون جليلاً جميلاً، حينما يجسّد معاناة بني البشر».

1 ـ فنون منبعها عالم الحس المضيء:

بعض الفن يكون جليلاً جميلاً، حينما يجسّد معاناة بني البشر، كما فعل بيتهوفن في سيمفونياته التسع، تلك التي حملت كل واحدة منها موضوعاً يمسّ البشر وأفكارهم، ويمسّ تحولات إراداتهم، وتقلبات صحتهم. ولم أجد مثل المكفوفين إبداعاً، في الحسّ المرهف، وفي الإنتاج الفني بمجالاته المختلفة. فالعمى ليس عمى البصر، وإنما عمى البصيرة، وأعنف العمى أن لا يطوّر الإنسان معارفه وقدراته، وأن يستسلم لحمّى الجهل. فالعمى عمى العقل، وما أجمل من قال:

وليس العمى أن تفقد العين نورها

ولكنه نور العقول إذا استتر

عرض لنا الإعلام تجربة ثمانين طالباً من المكفوفين في ثانوية بالرياض رسموا لوحة فنية جميلة، حين شاركوا في أداء عرض مسرحي، ضمن المنافسات

المسرحية التي يقيمها تعليم الرياض، (يونيو/حزيران 2010). العرض المسرحي حمل عنوان «مصاعب الحياة» وقدمها طلاب ثانوية الأندلس. أبدع المكفوفون فنياً بينما الكثير من المبصرين لا يستطيعون منافستهم في إبداعاتهم. العجيب أن سياق نشر الخبر في بعض الصحف وصفت المكفوفين بـ: «المحرومين من النظر»، وأظن أن هذا تعميم فيه مجازفة.

ليست قيمة الإنسان في ما يحمله من أعضاء. هناك الكثير من حمَلة الأعضاء الضخمة والبُنَى القوية، هم من الجُهّال الذين يعيشون في مراحل ما قبل التاريخ. بعض بني البشر، ذوو عضلات مفتولة، أجسام البغال وأحلام العصافير. النظر نعمة لمن استثمر هذا النظر في الإنجاز، وإلا ما فائدة ملايين العيون التي لا تحسن إلا النوم والنعاس. فالبصر ليس نعمة وفقده ليس نقمة، وإنما العقل هو النعمة، لأنه هو الذي يجعل لكل عضو قيمته، ولكل حاسة هدفها.

تربطني بالمكفوفين علاقة حب ومودّة، لأنني أعرف عالمهم الشفاف، وأتمثل أحياناً ظلامهم. قابلتُ الكثير

من المكفوفين المبدعين. وقرأت للكثير من الأدباء والشعراء المكفوفين، وكم أنار شعرهم طرقاً كثيرة. فليس العمى فقدان البصر، ولكن العمى فقدان الرؤية والبصيرة. ولننشد مع بشار بن برد قوله:

شفاء العمى طول السؤال وإنما

دوام العمى طول السكوت على الجهل!

2 ـ من المعاناة يولد شرر الإبداع:

قيمة الحياة في التحديات التي نخوضها. لا إنجاز يتحقق بسهولة، ولو ندب الكسول حظه، وشكا دهره!

كل طموح يحتاج إلى صبرٍ وإلحاح وتدرب على المصاعب والمتاعب. خلال السنوات الماضية انشغلت بقصص المكفوفين، واستهواني عالم الظلام هذا. قرأتُ في أشعار المكفوفين وإبداعاتهم من بشار بن برد إلى أبي العلاء المعري إلى طه حسين وبروخيس. كل هؤلاء لديهم أضواء لا أجدها عند غيرهم من المبصرين. استضفت في برنامج «إضاءات»، بقناة «العربية»، المبدع والعبقري السعودي: مهند أبودية، الذي كان من أكثر الضيوف إضاءةً، رغم أن بعض الناس يتوهمون أن الكفيف يعيش في ظلامٍ دامس... وهيهات!

كذلك هو الحال مع المعاقين الذين أثبتوا أنهم أرقام صعبة، فعلوا ما عجز عنه الأصحّاء، ومثال

الفيزيائي الكبير ستيفن هوكنج واضحٌ أمامنا، فمنذ نصف قرن وهو يكتب مؤلفات هزّت قارات العالم. أمامي الآن نموذج للإرادة القوية تجلت بطاقة الأستاذ: حيدر طالب، من الإمارات الذي انطلق في نوفمبر (كانون الثاني) 2010، في رحلة تأخذه عبر الإمارات السبع، لدولة الإمارات العربية المتحدة، بواسطة كرسي متحرك يعمل بالطاقة الشمسية، بمناسبة اليوم الوطني للإمارات. تقول الأخبار إن حيدر سيقطع 350 كيلومتراً في هذه الرحلة بواسطة الكرسي الذي صممه وبناه بنفسه من أجل الترويج للابتكار والطاقة المتجددة في أنحاء الإمارات كافة.

يقول حيدر: «إن هذه الرحلة تهدف إلى المساهمة في نشر الوعي حول الإعاقة والاستدامة، إضافة إلى تسليط الضوء على ما يمكن لكل فرد تحقيقه عند امتلاك العزيمة والشجاعة والإرادة. بعد أن طورت الكرسي المتحرك أريد أن أزور الإمارات السبع من أجل المساهمة في تسليط الضوء على أهمية الطاقة المتجددة والمستدامة».

هدف هذه الرحلة كما تقول مديرة إدارة الاستدامة الدكتورة نوال الحوسني: «خلق الإلهام والتشجيع لملايين الأشخاص في الإمارات والمنطقة والعالم فيما يخص ضرورة تشجيع استخدام الطاقة المتجددة».

هذه الرسائل التي يقوم بها من يظنّ بعض الأصحاء أنهم أقدر منهم، تبيّن أن العجز ليس في الأعضاء وإنما في الإرادة، لدى كل إنسانٍ أعضاء كثيرة، ولديه قوى لكنها في الغالب تذهب هدراً وتضيع في ممارسات يومية عادية لا تضيف للبشرية شيئاً، إن رسالة حيدر إنسانية الهدف والمضمون، أن يشجّع على الطاقة المتجددة، رسالة عبر الجسد عبر الرحلة والسياحة داخل الإمارات. شكراً حيدر على هذا النفس الجميل والتصرف الإيجابي الحميد.

مهند أبو دية

«عبقريته تسكن النور»

1 ـ ضد المستحيل:

مهند أبو دية، مخترع سعودي ناجح، لم تثنِه كلمات التثبيط عن مواصلة مشواره العلمي والمعرفي. وحينما فقد بصره لم يزد على أن أنشد:

إن يأخذ الله من عينيّ نورهما

ففي لساني وسمعي منهما نور

من اختراعاته، قفاز يحول لغة الإشارة إلى صوت. كما اخترع قلماً ذا نهاية ممغنطة تساعد الأطفال والذين يعانون الارتعاش باليد والمكفوفين على الكتابة على سطر مستقيم.

ومن أشهر اختراعاته على الإطلاق غواصة، أطلق عليها اسم «صقر العروبة»، والتي تكسر حاجز الغوص العالمي بعمق 6525 متراً تحت الماء، متفوقة على العمق الذي وصلت إليه الغواصة اليابانية شينكاي البالغ مدى العمق الذي تصل إليه 6500 متر. يتحدث مهند عن

نفسه فيقول إنه في خلال الأربع السنوات التي كان يخترع فيها الغواصة، سمع كلمة مستحيل 232 مرة، وكان آخرها من مهندس ياباني للغواصات، وكان يسجل كل كلمة مستحيل يسمعها فهو يعشق التحدي. إضافة إلى اختراعه سماعة أذن تنبّه من يستخدمها إذا كانت وضعية جلوسه خاطئة.

تعرض في 3 أبريل (نيسان) 2008 إلى حادث سير أصيب إثره بالعمى! تحول مهند أبو دية بعد الحادث إلى لهيب من الحماس يكاد يلتهم ما حوله، وقد برر ذلك في أحد لقاءاته قائلاً: «إن كنت أتغذى على التحديات فإن الله رزقني بوجبة دسمة من التحديات». ولعل اختراعاته التي أبدع في إنجازها كانت تدل على عزمه وإصراره، وعدم استسلامه لعبارات المستحيل، وجمل الخذلان، وكلمات تبعث على الكسل والدعة والركون، وعلى رأسها الغواصة التي تعتبر الاختراع الأكثر جمالاً وجاذبية.

تمكن من إنجاز المشروع بعد متابعات دقيقة لعالم الغواصات، وقد أثاره عدم تمكن جميع الغواصات العالمية من تجاوز حاجز السبعة كيلو مترات تحت الماء.

ويرى أبو دية أن الغواصات تعاني من مشاكل مختلفة بمجرد أن تصل إلى الضغط العالي تحت أعماق ما بين 3 إلى 6 كلم، فكونها أسطوانية الشكل يجعلها عرضة لتأثير الضغط على جسمها، لأن الضغط يتوزع بشكل غير متساو على اتجاهاتها، فالضغط من أعلى ومن أسفل أقوى من الضغط في اليمين واليسار، مما قد يؤدي إلى تحطيمها تحت الماء.

كل ذلك كان محرضاً لمهند أبو دية، مما جعله يجري العديد من التجارب لعدد من النظريات الفيزيائية بعد بحث طويل في مجال تقنيات الغواصات، ليهتدي إلى النموذج الجديد من الغواصات التي تمكنت من كسر الحاجز بسهولة.

إنها العبقرية الفذة التي وجدت في الإصرار شرطاً أساسياً لاجتياز كل التحديات التي تنسج في طريق الابتكار المليئة بالصعوبات والتحديات.

2 ـ مهند بعين والدته:

حاورتُ والدة مهند أبو دية، باحثاً عن سر هذا الإنسان وعبقريته واهتماماته اللافتة، تقول عن هوايته في الابتكار منذ صغره إنه: «منذ سن الطفولة كان مغرماً بالفك والتركيب، وكان يعجبه دور القائد والمُوَّجِه في الألعاب الحركية وألعاب البلاي ستيشن».

لم تكن المرحلة الابتدائية تشي بأن هذا الطفل كان طفلاً عادياً. بالنسبة لوالديه، كان كل شيء مختلفاً. تشككا مرة، تلعثما ثانية، لكنهما قبضا على الحقيقة التي تبين أن طفلهما الصغير، كان يحمل اختلافاً في طباعه وعاداته، وتعاطيه مع الأشياء من حوله، «منذ المرحلة الابتدائية، كان مهند، ذكياً ونابهاً، لم يكن من الصعب اكتشاف ذلك»، كما تقول والدته.

انطلاقاً من وعي والديه التربوي فقد تركا له حرية الاختيار، تقول الأم، والأم مدرسة كما نعرف: «تركنا له

حرية الاختيار حتى يبدع في مجال تخصصه». وإذا كان الطبيعي أن يكون الطفل النابه، والشاب المتميز قدوة لمجايليه، ومعاصريه، ومن يقتاتون من بني جنسه على نفس الاهتمامات وذات الملفات، فإن من اللافت أن مهند كان بالإضافة إلى ما سبق، قدوة لوالديه، بل إن «قوتنا كانت تزداد بقوة مهند». ومن خلال حوار أمه نقرأ أن قناعة مهند بما هو فيه من إبداع، ورضاه بما قضى الله من أوجاع وآلام هو الذي ألهمهما ليدركا سعة الحياة وجمال إنسانية الإنسان.

3 ـ مهند بعين والده:

في حوارٍ أجريتُه مع والده لإثراء هذا الكتاب، قال لي جبريل أبو دية، أن مهنّداً كان منذ الصغر متسائلاً، يقول: «بصورة غير مباشرة بحكم أن ثقافتنا التربوية والاجتماعية كانت، وما زالت، ليس من ضمن قوانينها قانون حسن الإصغاء للصغار أو الاهتمام بما يقولون أو يفعلون. مهند، حفظه الله، كان كثير الأسئلة، جريئاً في أخذ زمام المبادرة في البحث عن إجابات لأسئلته التي تتأخر نتأخر بإجاباتها عليه، خاصة إذا كان الأمر يرتبط بجهاز إلكتروني، أو بلعبة من ألعاب الأطفال المعروفة، ثم كان توفيق الله في التفاتنا إليه». دخلتُ على والده بسؤال عن التغييرات التي طرأت على مهند فأجابني أن: «هذا السؤال قد يجد إجابة منطقية لو طرح على بعض أصدقاء وزملاء مهند في المرحلة الثانوية والجامعية أي من يعرفوه قبل وبعد الحادث الذي

تعرض له، أما أنا وأمه، فإن رؤيتنا لمهند لم تتغير، وبقينا نتعامل معه على أنه البطل صاحب البصر والبصيرة، بيد أن مهند اليوم هو أكثر جديةً وعزماً ومنطقيةً عاقلةً للعيش بشرف، دون تراجع عن مشروع النجاح، دون أن نغفل الرصيد الروحي والديني، الذي يملأ قلبه ويضمخ وجدانه».

أبوة جبريل لابنه مهند جعلته ينفي أن يكون قد أراد من ظهور ابنه في الإعلام التكثر بكارثته كما قد يفهم بعض المغرضين، بل يوضح ما هو أبعد من ذلك حين أجابني: «عندما سمحت لهذا البطل بالظهور الإعلامي لم أكن أذهب الى كسب مزيد من التسويق لكارثته، ولا أن أنشد له الشفقة والعطف، أنا وأمه، كرهنا ظهوره مسبقاً في هذا الإعلام، حيث لدينا قناعة بأن عيناً ـ ما خافت من ربها ـ أصابته، والعين حق، لكن مهند، نجح في كسب دعمنا له، عندما ردّد علينا مراراً وتكراراً، أنه يريد إيصال رسالة عاجلة ومهمة، إلى كل إخوانه ورفاق دربه من الشباب السعودي والعربي والاسلامي، عبر هذا الإعلام، بأن الحياة متعتها في تحدياتها، لقد كانت

ميماته الأربع المشهورة، والكفاح من أجلها، هي من أحالنا الى كوكبة من جماهيره».

كان مهند يحدثني على شاشة التلفاز، وهو يسعى لطموح، يبذل الغالي والنفيس، من أجله، وهو أن يرى تحققاً لهذه الميمات الأربع: مليون مخترع مسلم محترف!

فتحت مصيبة مهند عيون والده على فئة المكفوفين، يقول لي جبريل، والد مهند: «لم أكن أعلم الكثير عن واقع هذه الفئة الغالية والمهمة في مجتمعاتنا، إلا بعد ماحدث لمهند ابني، إلا أني أشعر أنهم مازالوا يستحقون الكثير، من قبل الدول والمجتمعات والمؤسسات. فمثلاً حين كتابة هذه السطور مازالت جامعاتنا تفتقر الى نظام تعليمي يستوعب ذوي الاحتياجات الخاصة مثلما هي الحال في أميركا وأوروبا، هذا مثال وأعطيك مثالاً أخر، كثير من الشركات والمؤسسات لدينا لا تجرُأ على توظيف أي كفيف، حتى ولو كان مميزاً وعبقرياً في مجاله، في منصب قيادي، وللأسف، إنها لا تجرأ أن تعين كفيفاً ولو في منصب غير قيادي».

يسحب الإعلامي السعودي جبريل أبو دية من أعماقه نفساً عميقاً، ثم يطلق تنهيدة، بقدر ألمه على ابنه وعلى فئة من ذوي الاحتياجات الخاصة، ضمنهم المكفوفون، ويقول: «هناك أمثلة عديدة لتخلفنا في تقديم أنظمة وقوانين تحفظ للمكفوفين بشكل خاص، ولذوي الاحتياجات الخاصة حقوقهم».

يعدل جلسته، ويحاول التماسك، لكن الأمر أكبر من محاولات التجميل، يضيف: «نجامل أحياناً وندعي أن لا تمييز في المؤسسات والمجتمع ضد المكفوفين، لكن الواقع يؤكد هذا التمييز، وذلك بسبب عدم وجود أنظمة واضحة وصريحة لكيفية التعامل مع مهند وأترابه من المكفوفين من الجنسين في مجتمعنا السعودي، كما أن ثقافة التعامل معهم وتسهيل أمورهم دون شفقة أو عطف من قبل أفراد المجتمع مفقودة، مع أن لنا ديناً حنيفاً يدفعنا الى ذلك دفعاً؛ ألم تنزل سورة قرآنية كريمة تؤكد على حسن التعامل والتقدير للأعمى ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ (عبس: 1 ـ 2)، ومع ذلك يحكي لي مهند أن أحد الموظفين في الجامعة أصر عليه، أن يُثبتَ

له أنه كفيف، عندما أراد مهند أن يعود للجامعة طالباً وقد غاب عنها للعلاج في الخارج بعد الحادث، فتخيل مستوى السذاجة والتخلف لدى بعض الموظفين عند تعاملهم مع ذوي الاحتياجات الخاصة»، هكذا حكى لي والده.

يشترك والده مع جواب والدته، حول نبوغ مهند المبكر. يسرد جبريل، قصة نبوغ ابنه مهند قائلاً: «عندما تجاوز المرحلة الابتدائية أحسستُ أنا بوصفي أباً، أن ابني مختلف، ويستحق مني عناية أكثر، وقرباً وجدانياً أكبر، ولذا حرصت على اختيار المدرسة التي سيواصل فيها تعليمه المتوسط، وحاولت جاهداً، قدر إمكانياتي، توفير ما يحتاجه ليمضي في نجاحاته، ورغم أن المدرسة التي وفقني الله لاختيارها، بعيدة جغرافياً، ومصاريف التعليم فيها مرتفعة، الا أن الله يسّر، وفيها بدأت خميرة التميز في تفكير مهند، تظهر على مستوى المدرسة، وعلى مستوى مدينتنا، عاصمة السعودية؛ الرياض، ثم بعد ذلك بسنتين كان التميز على مستوى السعودية كلها، وذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء من

عباده. أما أمه، فتقول إنها لاحظت مبكراً، هذا النبوغ، على ابنها الصغير، من خلال بكائه وتذمره، عندما تأخذ من يده أشياء، كان يلعب بها ويتأملها، مثل الساعة المنبهة، وأسلاك التليفون، أو أدراج دواليب الملابس. كانت تلحظ بوضوح أن فضوله كان أكبر من سنه».

تتلخص أماني الأب جبريل، في أن يحقق الله أمنيات ولده مهند. فما هي هذه الأمنيات؟!

يجيب الأب: «وجود مليون مخترع مسلم، وأن يرزقه الله المال والعلم والصبر، كي يحقق وجوده العلمي والفكري، دون أن ينتظر العطف من أحد».

ولكن كيف بنى الأب طريقة تعامله مع ابنه؟!

يقول: «اتّبع مع مهند الديمقراطية (البيتوتية)، لأن العلاقة مع مهند أخذت تختلف بعد المرحلة الابتدائية، فإن شروط دعمه ورعايته تتطلب مساحة من الديموقراطية (البيتوتية) في الطلبات، والمشاركة في النشاطات والمسابقات، ومن ثم المرونة في الاختيارات، فالفائز بمسابقة مدارس الرياض في الفيزياء، لا يمكن إرغامه على دراسة تخصص الأدب العربي أو التاريخ،

لذلك كان له ما أراد».

كان الأب يلمِّح إلى ما ذكره لي مهند، من أن أبويه، كانا ينتظرانه مختصاً في اللغة، والأدب العربي، كما هما، لكنه لم يرضخ لهذه الرغبة، واختار الفيزياء، وما يدور في محيطها!

أهل مهند يتعلمون منه الصبر والجَلَد، والقدرة على مواجهة الصعاب. يتحدث جبريل أبو دية بفخر: «عادةً، الكبار هم الذين يكونون قدوة للصغار، لكن هذا لا يمنع أننا تعلمنا من مهند، تعلمنا منه الصبر والايمان بما قدر الله، فعندما قرر الأطباء إجراء عملية بتر لقدمه اليمنى، بعد الخطأ الطبي الذي تعرض له، كان علينا أن نتخذ أصعب قرار لنا في حياتنا الزوجية، بالسماح لكائن من كان، أن يقتطع جزءًا غالياً من جسد ابننا البكر، حفظه الله وشافاه، وبعد جلسة مبللة بالدموع والنحيب، وَقّعنا الموافقة على بتر القدم، وكان الغالي مهند في غيبوبة، آنذاك، وبدأنا، أنا وأمه، نُفكرُ في مرارة الموقف، عندما يصحو مهند من غيبوبته، ويكتشف أنه بلا قدم يمنى». يبلغ التأثر في جبريل منتهاه، وهو

يتحدث عن هذه القصةِ المؤثرة في حياته، ثم يواصل بألم: «كانت جبال الهم والحزن تلتف حول رؤوسنا، وفي الليلة العاشرة عقب إجراء عملية البتر، أفاق مهند من غيبوبته، وأخذ يهذي ببعض الكلام، مع عمه خالد، أصغر إخوتي، وكان يشاركنا السهر على خدمة مهند، الذي كان يبكي أحياناً من الآلام المبرحة في جسده، ونحن في زاوية من غرفته بالمستشفى، نسمعه ونتألم معه، لكنه لم يكتشف بعد، ما فقد من أعضاء، عندما غفوت ونمت على أريكة بجواره وذهبت أمه الى المنزل، يقول عمه خالد إن مهند اكتشف أمر بتر قدمه في آخر الليل، وبكى بشدة، ثم قال بصوت حزين: الحمدلله الذي لا يُحمد على مكروه سواه».

تلك كانت رؤية والده في حديث حواري حميمي، تحدث عن مهند الإنسان والابن والمواطن والمخترع، وهو حوار يعكس وعي أبوين استطاعا أن يختطا مرحلةً جديدة، يقودها ابنهم الكفيف العبقري مهند، بل ويقود البيت، والجيل السعودي المخترع عن بكرة أبيه.

حواري مع الملهِم... مهند

تذكرتُ وأنا ألتقي مهند أبو دية قول أبي علي البصير الأعمى:

فقد يستضيءُ القومُ بي في أمورِهِم
ويخبو ضياءُ العين والرأيُ ثاقبُ

هذا هو حال مهند، الشاب الذي رسم حياته مبصراً وكفيفاً، أراد أن يشق بإرادته كل ما استعصى، وأن يخلع رداء التشاؤم إلى الأبد، حاورتُه مرتين، مرة في برنامج «إضاءات» في 2 يوليو (تموز) 2010، ومرةً أخرى من أجل هذا الكتاب، وجدتُ في أسلوبه بلاغة لغوية استمدها من قراءته، ومن تخصص أبويه في اللغة والأدب.

1 ـ ضوء رغم ساق مبتورة وبصر مفقود:

● سألتُ مهند: قدم لنا نفسك؟

فأجاب: مهند جبريل خليل أبودية، سعودي الجنسية، من مواليد عام 1987 بمدينة جدة.

● كيف فقدت بصرك؟!

فقدت القدرة على الإبصار كلياً بسبب مشاكل في العصب البصري، وقد بترت ساقي اليمنى بسبب إصابتها بالغرغرينة، ولكن لا شيء يوقف طموحي للوصول إلى الضوء في آخر النفق.

● ماهي مؤهلاتك العلمية؟!

أدرس في كلية الهندسة، قسم الهندسة الصناعية بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن، وأنا أول مهندس صناعي كفيف في العالم العربي.

يتحدث عن خبراته، فيقول: عملت:

ـ باحثاً في المركز الوطني للفيزياء والرياضيات ـ السعودية (2005).

ـ رئيساً لنادي العلوم بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن (2005 ـ 2006).

ـ مديراً لمؤسسة «فيزيا ميديا للعروض» العلمية (2007م).

ـ مؤسساً مشاركاً في جمعية المخترعين السعوديين (2006 وحتى الآن).

ـ مدرباً لمهارات الاختراع معتمَداً من الأكاديمية البريطانية للتدريب بلندن، وجمعية المخترعين السعوديين (2006 وحتى الآن).

ـ مؤسساً ورئيساً لمركز إسطرلاب للتدريب (2008 وحتى الآن).

ـ المدير التنفيذي للحملة السعودية الأولى لنشر ثقافة الاختراع (2009 وحتى الآن).

● وماهي الانجازات التي حققتها وأنت لم تجاوز السنوات الأولى من العشرينات؟!

ـ المركز الثالث على مستوى المملكة العربية السعودية في الكيمياء (2003).

ـ المركز الأول على مستوى المملكة العربية السعودية في الفيزياء (2004).

ـ المركز الثالث على مستوى دول الخليج العربي في أولمبياد الفيزياء الخليجي بدولة الكويت (2004).

ـ كرمتني مدرستي (مدرسة الملك سعود الثانوية بالرياض) لحصولي على إحدى أعلى العلامات في امتحان قياس القدرات العقلية الوطني (2004).

ـ كُرِّمتُ بجائزة الطلاب المبدعين من الأمير سلطان بن سلمان بن عبدالعزيز، في المملكة العربية السعودية لمرتين على التوالي (مرة في الفيزياء ومرة في الاختراعات).

ـ رُشِّحت رئيساً للفرع السعودي للجمعية الدولية لطلاب الفيزياء (2005).

ـ رُشِّحت قائداً لمنتخب المملكة العربية السعودية في الأولمبياد الدولي للفيزياء، بكوريا (2005).

ـ رُشّحت لأمثل المملكة العربية السعودية في المعرض العالمي للمخترعين الشباب، في تشيلي (2006).

ـ كُرّمت من العاهل السعودي الملك عبد الله بن عبد العزيز، وولي العهد الأمير سلطان بن عبد العزيز نظير انجاز اختراع الغواصة العربية (صقر العروبة ـ 1) (2007).

ـ أنا مخترع في مجال التقنيات الفيزيائية وأنجزتُ تسعة اختراعات وطنية، معلوماتها موثقة بمكتب براءات الاختراع السعودي ومكتب براءات الاختراع الأميركي.

ـ حصلتُ على ميدالية معرض الابتكار السعودي الأول برعاية من الملك عبدالله (2008).

ـ نفذتُ أكثر من مئة وعشرين محاضرة عامة في داخل المملكة العربية السعودية وخارجها عن مواضيع متنوعة أهمها تحفيز الشباب للانجاز وتعليم الاختراع للمبتدئين (2004م ـ 2009).

ـ قدمتُ أكثر من أربعمئة ساعة استشارية مجانية

للطلبة بخصوص تنفيذ الاختراعات وتسويقها (2005 ـ 2009).

ـ دربتُ أكثر من ثلاثمائة طالب وموظف على مهارات الاختراع الأساسية والمتقدمة كالتفكير الابتكاري وكيفية كتابة براءة الاختراع (2006 ـ 2009).

ـ كتبتُ أكثر من ستة كتيبات ومنشورات عن ثقافة الاختراع مثل كتيب «كن مخترعاً»، الذي طبع منه أكثر من ثلاثين ألف نسخة في المطابع الحكومية، ووزع على طلبة المدارس في المملكة العربية السعودية (2007 ـ 2009).

ـ قدمتُ سبع أوراق علمية في مؤتمرات وملتقيات علمية في المملكة العربية السعودية والإمارات والبرتغال وتشيلي.

ـ ألفتُ منهجاً دراسياً عربياً متخصصاً في تعليم طلبة المرحلة الثانوية لمهارات الاختراع، من مهارة ابتكار الحلول، وانتهاءً بمهارة تسويق الاختراعات، ودُشّن هذا المنهج في شهر مايو (أيار) من عام 2010. في معرض ابتكار السعودي الثاني برعاية الملك عبدالله بن عبدالعزيز.

2 ـ الإصرار... التغيير... اليأس:

سألتُه عن التغيير الذي حصل في حياته بعد الحادث وفقدان البصر، فقال لي بهدوء، وقد بدت الخيارات واضحة محسومة في ذهنه: «لقد كان التغيير اختياراً يخصني؛ هل أريد أن أكون المخترع الذي أصبح كفيفاً؟ أم الكفيف الذي أصبح مخترعاً؟! لقد كان عليّ أن أُحدِّدَ: ما الذي يجب أن يتغير في مهند وما الذي يجب أن يبقى؟ لذا قررت أن يبقى الحلم وأن تتغير خطوات تحقيقه، ويبقى تخصصي الجامعي وتتغير أدوات الدراسة، ولتبقى البصيرة وتتغير طريقة الإبصار. ولعلمك، فإن عالم المكفوفين ليس بتلك السوداوية، فالكفيف يستطيع أن ينام من دون الحاجة لتغميض عينيه، ويستطيع أن يلقي محاضرة أمام الآلاف دون أن ترعبه حدة نظراتهم، والأروع هو أنه يستطيع أن يمر بعينيه على المشاهد المخجلة والمقززة في العالم العربي دون أن تحمرّا غضباً».

أي نفسية تلك التي لا تعرف سوى الإيجابية؟!

أي قدرة هذه التي تختار البياض من وسط السواد الحالك، والضياء من بين أسراب الظلمة؟!

قاتل الله التثاؤب الذي يسكن نفوساً تظن أنها سليمة معافاة. لعمري إن ذهناً كذهن هذا الشاب المتألق الوثّاب هو الذهن الحقيقي، وإن عزيمة متقدة، متألقة كعزيمتك يا مهند، هي العزيمة!

لله درّ المتنبي كأنه كان يخاطبك حين قال:

عَلَى قَدْرِ أهلِ العَزمِ تَأتِي العَزائِمُ
وتَأتِي عَلَى قَدْرِ الكِرامِ المَكارِمُ

يعتبر مهند جبريل أبودية نفسهُ، «الجرس الموقظ» للبعض، ولا يفضل لقب «أسطورة»، بعد أن صار ملهماً للشباب من جيله. يستمر في حديثه: «أنا لا أرى أنني قد تحولت إلى أسطورة، قد أكون جرساً أيقظ البعض، ولكنني أتوقع أن هناك الكثير ممن لديهم قصة أروع بكثير من قصتي، ولكن يبدو أن الإعلام قد ساعدني كثيراً في أن تصل قصتي إلى حيث لم تصل القصص الأخرى».

إذا قاربت مهند ترى في حركته وكلامه روح الإصرار وهي روح تحدث هو عنها وربطها بالبيئة الأولى التي علمته هذه القيمة، يقول: «لقد علمني والداي منذ صغري، أن أكون معتزاً بنفسي، وأن لا أرضى لها إلا ما يليق بعزتها، وإثر هذا الدرس، لم أقبل لنفسي أن تقع في ما يخدش اعتزازي بها، من الأشياء التي كانت شائعة في أبناء جيلي، ولم أرضَ من الأحلام سوى بأسماها وأصعبها تحقيقاً، فكنت أرى نفسي طوال عمري في سباق مع العظماء، حتى الذين لم يعيشوا في عصري، آمِلاً في أن أصل إلى ما وصلوا إليه، إشباعاً لاعتزازي بنفسي».

صدقت يا مهند، ألم يقل أبو القاسم الشابي يوماً:

ومَنْ يتهيَّبْ صعودَ الجبالِ

يعِش أبدَ الدهرِ بين الحُفَر؟!

ولكن، ما الذي استيقظ في مهند بعد الحادث؟!

يزهو الشاب العشريني بابتسامته المحببة، التي باتت أشبه ما تكون بماركة مسجلة له، ويجيب بهدوء الواثقين،

العارفين: «بعد الحادث، استيقظت لأدرك أن السباق قد أصيب بمعوقات أكبر، ولكن الفارق أن الجائزة أصبحت الآن أكبر، وأن هيلين كيلر ليست أفضل مني، وأن الحياة بدون تحديات، مؤلمة ليس لها طعم، تماماً كالطبق الهندي عندما يخلو من البهارات الحارة. لقد اختار لي رب العالمين هذا التحدي، لذا سأُريه ما سأصنع، وسأُري والديّ وزوجتي العروس، كيف أنني لن أصبح عالة عليهم، فهذا يتنافى تماماً مع اعتزازي بنفسي».

لكأني بك تتحدث بلسان أبي فراس الحمداني يوم قال:

ونحن أناسٌ لا توسّطَ بيننا
لنا الصدر دون العالمين أو القبرُ
تَهونُ علينا في المعالي نفوسُنا
ومن يَخْطُبِ الحسناءَ لم يُغْلِها المهر
أَعَزُّ بني الدنيا وأعلى ذوي العلا
وأكرمُ مَن فوقَ التراب ولا فخر

شابٌّ لا يعرف اليأس، يستمر في نبضه، ويواصل عطاءه: «لا بد وأن يجد اليأس ثغرة في يوم من الأيام

ليزعزع مسيرتي، ولكنني كنت أستعين بالله وأشحن عزيمتي بمن يعتز بي ولا يرضى لي الهوان من أهلي وأصدقائي، وكنت أطّلِعُ على مختلف قصص ذوي التحديات عبر التاريخ، وأقول: هؤلاء ليسوا بأحسن مني أبداً. ذات يوم وبعد نقاش حاد مع أحد أساتذتي الجامعيين، بدأت الدنيا تسود في وجهي رغم وضح النهار، وخرجت إلى الشارع منتظراً أحد سائقي الأجرة، ولكن أحد الطلاب أوقف سيارته أمامي وأقسم علي بأن يوصلني هو إلى البيت. خلال مشوارنا الصغير، رأى في ملامحي بوادر الضعف واليأس، فقال لي بلهجة حازمة: أتمنى يا مهند أن لا تفكر في التوقف عن مسيرتك الحافلة بالمنجزات، ليس من أجلك، بل من أجل مئات الأشخاص الذين يعتبرونك قدوة وملهما لهم مثلي. إن توقفت، سنتوقف جميعاً!».

ماذا فعل بك صديقك الذي أوصلك يا مهند؟!

يجيب: «بصراحة، لا أعرف اسم ذلك الشخص، ولكنني أشعر أنه ملاك قد نزل ليشحذ همتي».

أحياناً تكون رسل البشرى، وعلامات الإلهام صغيرة، تواجهك في طريق كنتَ تظنّ آخره مظلماً!

3 ـ قصة الحادث:

يحدثني عن الحادث الذي غير حياته: «بعد أسبوعين من زواجي ومشاركتي في معرض الابتكار السعودي الأول، عدت إلى الرياض من المنطقة الشرقية ـ حيث جامعتي ـ لكي أساعد أهلي في احتياجاتهم، فقد كان أبي في مهمة رسمية في االولايات المتحدة الأميركية. تركت زوجتي في المنزل وخرجت صباحاً من أجل تلبية وشراء احتياجات العائلة، وخلال مشوار عودتي أعلنت مؤشرات سيارتي ارتفاع درجة حرارتها وهي حالة تكررت معي أكثر من مرة من قبل، فاتصلت بأبي طالباً مشورته لأن السيارة ملكه وهو أعرف الناس بها، فاقترح علي أن أذهب بها إلى ورشة ليقوموا بتعبيئتها بماء التبريد، ولكنني أصررت على أن أعبّئ ماء التبريد بنفسي، ولذلك أوقفت سيارتي في مسار الطوارئ، وفتحت غطاء السيارة الأمامي وأخرجت عبوة ماء التبريد، وفتحت غطاء خزان ماء التبريد، وظللت واقفاً أنتظر أن

يهدأ الغليان الموجود في ذلك الخزان، ولكنني استيقظت في مستشفى الحرس الوطني بعد ذلك بحوالي ثلاثة أسابيع».

الصدمة كانت قوية بسبب الحادث، ويعتبره الحدث الذي غير حياته بقوة، يقول: «الحادث حصل في مدينة الرياض، الحادث غيّر الكثير في حياتي، صنع مهندساً مختلفاً فعلاً، أنا قبل الحادث كنت أعمل في نشاط الاختراعات، وكذلك بعد الحادث، ولكن توجهي أصبح بعد الحادث مختلفاً، الحادث الذي تمّ، كان بالنسبة لي مفصلاً ونقطة تحول، كانت الصدمة قوية».

4 ـ الجريمة بحق ساقه:

حديثه المؤلم عن الحادث يقطر وجعاً، يقول إن: «الوقوف على طرف الطريق، في مكان الطوارئ، هو المكان الطبيعي لتوقف من تعطلت سيارته. وقفت هناك، لم أرتكب خطأً. والسيارة الطائشة صدمت سيارتي من الخلف، وأنا كنت أصلحها من الأمام. ثلاثة أسابيع من الغيبوبة، وأستيقظ لأرى أني لم أعد أرى، وطبعاً لم أجد ساقي اليمنى، ما حصل من بتر ساقي اليمنى ليس خطأً طبياً، لأن الخطأ يكون شيئاً غير مقصود. ما حدث من بترٍ لساقي، هو جريمة طبية، نعم جريمة طبية مكتملة المعالم. وذلك ليس بكلامي، بل بكلام اللجنة الصحية الشرعية في وزارة الصحة، بترت ساقي من دون أن تكون مستحقة للبتر. ثانياً بترت من قبل شخص غير مصرَّح له أن ينفذ هذه العملية. البتر كان ضرورياً، ولكن الخطأ لم يكن في البتر، بل البتر كان شيئاً ضرورياً يقوم به أناس أكفاء. لكن المشكلة تكمن في السؤال: لماذا بترت

الرجل؟ لأن ساقي أصيبت بالغرغرينا بسبب الجريمة الطبية التي تكمن في الإهمال، رغم أن الطبيب كان يعلم أن هذه الرجل لو تركت هكذا بدون علاج طبي خاص سوف تصاب بالغرغرينا... ومع ذلك فهذا الرجل لا يزال يعمل ولا يزال يقوم بالعمليات بنفس الأخطاء رغم ما حصل في حادثي، وللأسف. والمحاكمات الآن مع هذا المستشفى لا تزال تسير على ظهر السلحفاة. وأتوقع أن أول درس أعلمه لأبنائي أن يبحثوا في هذه القضايا التي تظلّ في أدراج المحاكم، حسبما قال لي المحامي، عهوداً طويلة، وحتى لو تم البت فيها فغالباً لن يكون التعويض الذي سيدفعه الدكتور الذي هرب من السعودية قبل المحاكمة، لن يكون التعويض أكثر من نصف راتبه الشهري! هل تتخيل، نصف راتبه الشهري مقابل ساقي اليمنى، أليست هذه قسمة ضيزى؟!».

ماذا عن فقدك البصر يا مهند؟!

«أما عن موضوع البصر، فكان بسبب الحادث إذ كُسِر النصف الأيمن من وجهي. إلى الآن لا يوجد سبب واضح لفقدان البصر، ولكن كلها توقعات الأطباء.

فتوقعوا أنه من الاصطدام وما خلفه من اهتزاز فحصل قطع للعصب البصري الموصل بين العينين والدماغ. هذا أمر لا علاقة له بخطأ طبي بتاتاً، قد تكون المشكلة هي أننا تأخرنا في الذهاب إلى المستشفيات في الخارج، بسبب تأخر التأشيرات الخاصة بالسفر، لما ذهبنا إلى الطبيب في أميركا قال لنا: لقد تأخرتم. ربما كان العلاج ممكناً لو عجلنا، ولكن الحمد لله على كل حال».

5 ـ لم أعد أخاف:

الإعاقة دافع وليست عائقاً، هذه هي فلسفة مهند، الذي قال إن: «الإعاقة تدعوك للتوقف. مثل العلامة... والناس يختلفون في تفسير العلامات. لأضرب لك مثالاً، في إشارات المرور، يختلف بعض السائقين في تفسير الإشارة الصفراء، أناس يعتبرونها دلالة على التهدئة من أجل التوقف، وآخرون يعتبرونها دلالة للإسراع قبل أن تضيء الإشارة الحمراء. اختلاف المنظور يطابق ما أتحدث عنه الآن. عندما تواجه الإنسان المشكلات، فإما أن يراها معيقاً له، وعذراً ومبرراً للتوقف، وإمّا يقذف بكل هذه الأعذار وراء ظهره، ويقبل التحدي بلا جدال، ويتجاوز التحدي، ويتخطى المستحيل».

مهند لا يعرف الخوف، لأن الخوف هو الإعاقة الحقيقية، اليأس أيضاً إعاقة، إن فقدان جزء من الجسد لا يعتبر عائقاً بقدر ما يعتبر دافعاً عظيماً نحو التوقد

والاشتعال، يتحدث: «أنا الآن أشعر بأن الخوف بالنسبة لي قد كُسر. لم أعد أخاف، وأصبح اهتمامي الكبير منصباً على ما أقوم به، أصبح الإنجاز هو قضيتي... أنا مثلاً لم أذرف دمعة واحدة بعد الحادث، وهذا كان تثبيتاً من رب العالمين. قلت لأهلي: إذا كان ربي هو الذي اختار لي هذا الشيء، فأنا أعلم أن ربي أرحم بي منكم كلم. هذا كله ليس بقوتي ولا بقدرتي ولكن بتوفيق من رب العالمين».

ويبقى السؤال، ما هي ملامح مهند الجديد في طوره الحديث؟!

يجيب: «الآن تحولت في هذه المرحلة من اختراع الاختراعات، إلى اختراع المخترعين، الذين يخترعون الاختراعات».

إنه إدراك المسؤولية تجاه المجتمع والناس، والانتقال من الإيمان بالنفس، إلى تحفيز الآخرين، ليؤمنوا بأنفسهم، ويصنعوا إنجازاتهم، ويتجاوزوا كل الصعاب في طريقهم.

6 ـ مؤسس جمعية المخترعين السعوديين:

سألتُه مرةً عن أمنيته، فأجاب: «أتمنى أن يُعطى أصحاب التحديات الخاصة، الفرصة لأن يثبتوا جدارتهم من دون أن نحكم عليهم مسبقاً، فمن الصعب أن تضيف إلى قيود حياتهم المزيد من القيود التنظيمية والقانونية، أما بخصوص الاختراع فأطالب بأن يعطى المخترع الفرصة في رسم مستقبل الاقتصاد المعرفي للوطن، وألا تُعامل مهارته التقنية على اعتبار أنها هوايات، يتم تنميتها، من أجل جمع الميداليات والشهادات فقط».

وعن «جمعية المخترعين السعوديين» يقول: «كنت أحد المؤسسين لهذه الجمعية، وكان معي مجموعة من الأشخاص. قمت بإعداد حملة، وهي الحملة السعودية الأولى لنشر ثقافة الاختراع. مررت فيها على أكثر من 18 ألف طالب وطالبة خلال ثلاثة شهور في مختلف أنحاء البلاد. والحملة الثانية، إن شاء الله، ستكون قريباً.

طبعاً كانت الحملة بالتنسيق والعمل مع مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية، ممثلة في حاضنة «بادِرْ». أسسنا بعض المنتجات التي تساعد المخترعين على الاختراع، لأن كثيراً من المخترعين متحمّسون للاختراع لكنهم لا يعرفون السبيل إلى إخراجها إلى النور».

أنجز كتاباً وقرصاً مدمجاً، بعنوان «كيف تكون مخترعاً؟»، يصف مضمونه بأنه: «عبارة عن كسر الحاجز الجليدي ما بين الأشخاص العاديين وعالم الاختراع. عالم الاختراع عالم مخيف، والكل ينظر إليه عن بعد بأنه ليس لنا. الاختراعات لليابانيين، الاخترعات للغربيين... في هذا الكتاب، يظهر أن هذا وهم، وأن بإمكان كل ذي اهتمام أن يكون مخترعاً، إنه يجيب على كل أسئلته، ويقدم له طرف الخيط للدخول في عالم الاختراع، فيبدأ يتعلم ذاتياً، لأنه مهما حاولت أن أشرح له الاختراع بالكامل، يظل الكثير من الجهد عليه هو بالتطبيق والتجربة لينفذه. كنت أقول إن أكثر شيء يحتاج إليه المخترع هو الثقافة، ثقافة الاختراع».

وعن مسيرة «المركز السعودي لثقافة الاختراع»

المشروع الآخر الذي ساهم مهند في تأسيسه يقول: «المركز تغير اسمه الآن، لكي يكون أعمّ، من «المركز السعودي لثقافة الاختراع»، إلى «مركز اسطرلاب للتدريب». اسطرلاب هو اختراع إسلامي قديم، اعتبرناه أيقونة واسماً مميزاً: «مركز اسطرلاب للتدريب»، وهو أول مركز مختص في تدريب المخترعين، وتحويلهم إلى روّاد أعمال. كثيراً ما أردد في محاضراتي أن الاختراع إذا لم ينزل إلى السوق ويصبح مطلباً من الناس لشراءه، فهو لم يؤدِّ الغرض منه».

قال لي مهند إن السعودية تضم أكثر من 800 مخترع، بعض اختراعاتهم مسجل في قوائم الاختراعات، والبعض الآخر غير مسجل، يضيف: «مشكلتنا أن هذه الاختراعات كلها لا تزال حبيسة الأدراج، وبين جدران المنازل، وربما وصل بعضها ليكون في الصحف وفي المعارض وربما حصل أصحابها على الميداليات، لكن هذا لا يكفي. مشكلتنا أن بعض المؤسسات والمدارس والجامعات هدفها من المخترع هو حصد أكبر عدد ممكن من الميداليات العالمية. تدعم المخترع ليذهب

إلى المعارض ويحصل على ميدالية، توضع هذه الميدالية في داخل دولاب الدروع، ومن ثم يذهب المخترع مع الريح هو واختراعه، ويصاب بإحباط مثل الكثير من المخترعين، إلى درجة بلغت ببعضهم أن حاول الانتحار»!

7 ـ أول طالب هندسة كفيف:

قبل أعوام اختارت شركة «أديداس» العالمية شعاراً براقاً لمنتجاتها. كان الشعار يتحدث عن المستحيل، والجميل أنهم اعتبروا أن المستحيل... لا شيء!

ماذا عن المستحيل في حياة مهند أبو دية؟ للمستحيل معه قصص تستحق الرواية، لنستمع إليه يحدثنا عنها في جوابه عن سؤالي: الغواصة أحد أهمّ اختراعاتك التي اسميتها «صقر العروبة»، قرأتُ أنك سجلت كلمة «مستحيل» أكثر من مئتي مرة قبل أن تخترع هذه الغواصة. هل كنت تعني أنه لا يوجد ما يشجع على الاختراع؟

أجابني: «صحيح. لكن اسمح لي أن أصحح لك معلومتك الكريمة. كتبت كلمة مستحيل 232 مرة، لأنه الغواصة كانت مشروعاً جديداً، والكثير من الموجودين في السعودية عندما كنت أحدثهم عن اختراعي غواصة

يقولون لي: مستحيل، حتى قبل أن يقرأوا عنها، لأنهم مشبعون بالصور النمطية. وفي صورتهم النمطية أن الغواصة السعودية لن تنجح. ثلاث سنوات من العمل، منفرداً، على حسابي الشخصي. بصراحة كان أمراً مضنياً، لكن في الأخير الحمدلله وصلنا إلى نتائج إيجابية. وإن كنت توقفت عن العمل على إتمام مشروع الغواصة بسبب حادث السيارة الذي وقع لي».

وما هو الجديد الذي قدمته في الغواصة التي اخترعتها؟

قال: «تحمّل الضغط. مشكلة الغواصات أنها تصل إلى عمق معيّن وتتوقف. الضغط تحت سطح البحر هو ضغط كبير، يجعل الحوت الأبيض قلم رصاص. فهذ الضغط لو رُكّز على غواصة سيحطمها. فكانت ميزة غواصتي قدرتها على تحمّل الضغط... أعدت اختراع العجلة، صممت الغواصة من جديد، بحيث إنها قد يكون فيها عيوب مثل بطئها وغير ذلك، لكن فيها ميزة واحدة، أنها تتحمل الضغط العالي. يستطيع المهندسون أن يعالجوا العيوب، لكن أنا وضعت لمستي في تحمل

الضغط ويمكن أن يكمل غيري ويعالج العيوب الباقية. البعض يسألني: أين الغواصة؟ لماذا لم تكملها؟! وقع لي حادث السيارة في أثناء المشروع فتعطل المشروع. حالياً أركز على إتمام دراستي الجامعية».

يصمت قليلاً، وفي نفسه غصة من عدم إتمام مشروعه، لكنه يعرف كيف يلتقط الجمال، فيشرأبُّ تفاؤلاً وهو يقول: «أنا والحمد لله أول من يدرس الهندسة وهو كفيف في السعودية، وهذا قد يفتح الباب لمن بعدي. صحيح أن الوضع ليس سهلاً أبداً، لكن جامعة الملك فهد للبترول والمعادن في الظهران قررت أن تقبل التحدّي، وأن تجرّب مهند ابودية ليكون مهندساً كفيفاً».

يقول مهند عن نفسه: «أنا مثل السهم أحتاج لقوة تشدّني إلى الخلف لكي أنطلق بقوة إلى الأمام. لاعبو الـ Play Station يضعون اللعبة على الوضع الصعب لكي يشعروا بالإثارة. فأنا الآن ألعب، نفس حياتي السابقة، ولكن على الوضع الصعب. أنجزتُ أحد اختراعاتي الذي هو جهاز Sensor X هو الآن يُصنَّع في أحدى الدول العربية، فكرة الاختراع أنه عبارة عن دائرة إلكترونية،

سحرية، تُمكّن طلبة الثانوية والجامعات والمبتدئين من أن ينفذوا معظم اختراعاتهم، في ثلاث خطوات. فقط إيصال بعض القطع هنا وهنا، وتعديل المفاتيح ومن ثم يكون اختراعهم جاهزاً للعمل وبسعر مخفّض جداً. هدفي الرئيسي حقيقة هو إزالة العوائق أمام إخواني المخترعين. كثيراً ما أسمع المشاكل التي تواجه المخترعين، وتعيقهم عن مواصلة وتقديم اختراعاتهم، ولذلك أحاول أن أركز على سد هذه الثغرات. أحاول أن أجد حلاً لهؤلاء الأشخاص، كل ذلك في سبيل الحلم الكبير. حلم تحقيق «المِيمَات الأربع».

8 ـ حلم تحقيق الميمات الأربع:

حلم مهند ليس مثل أحلام مجايليه، فالكبار عقلاً، لا يقبلون بأحلام العصافير، يتحدث عن حلمه: «حلمي الذي أدعو إليه في كل مكان، في أي دولة أذهب إليها، هو: مليون مخترع مسلم محترف. وأضع عشرين خطاً تحت كلمة محترف. بمعنى أن يعرف بالضبط من أين تؤكل الكتف. يعرف بالضبط ما يعرفه المخترع في اليابان أو في ألمانيا. وهذا هو ما أعمل عليه عبر كتب خطوات الاختراع، وخطوات الاختراع عبارة عن خمسة كتب وDVD، وهي منهج دراسي. وهو أول منهج دراسي عربي لتعليم الاختراع. كثير من المدرسين كانوا يقولون لي: يا مهند الاختراع لا يُعَلَّم، بل إنك تولَد مخترعاً أو لا. لكني أمضيتُ السنوات الماضية أحاول إثبات أن الاختراع قابل للتعلّم، مثل الرياضيات واللغة. فأنشأت منهجاً دراسياً لطلاب الثانوية بلغة سهلة بسيطة، حصة

واحدة في الأسبوع لمدة سنة دراسية واحدة، يُخَرِّج المخترع وهو يعرف بداية «ما هو الاختراع؟»، وينتهي بأن يصبح مخترعاً يعرف كيف يحرر عقداً بينه كمخترع وبين التاجر الذي سيشتري مخترعه».

يتحدث بتفصيل عن خطوات الاختراع التي أسسها من خلال كتبه: «كن مفكراً، دليلك لتفجير طاقاتك العقلية»، ثم «كن مصمماً»، يليه «كن مستعداً»، وهو يُعِدُّ المخترع داخلياً ونفسياً وبيئياً لعالم الاختراع، فيصبح مخترعاً بدون اختراع. بعدها كتاب «كن باحثاً» يعلمه بالضبط كيف يستطيع أن يحضر المعلومة من أي مكان يحتاج إليها، وكيف يبحث عن مشاكل الناس. أما «كن مفكراً»، فيعلمه كيف يستعمل عقله لتوليد الفكرة وهي الإضاءة الأولى في عالم الاختراع. ثم «كن مصمماً، تحويل الأفكار إلى حقيقة»، تحويل الفكرة إلى منتج نهائي يمكن أن يكون جاهزاً ليصبح في يد المستهلك. وآخرها هو «كن مسوّقاً، من فكرة إلى ثروة» وهو يجعل الاختراع الذي في يد المخترع جاهزاً الآن ليكون منتجاً تجارياً، ويتحوّل هو من مخترع إلى رجل أعمال، بل رائد

أعمال. يتحول إلى اختراع في السوق ومن ثم يغيّر حياة الناس، وليس هناك أية فائدة من الاختراع إذا لم يغيّر حياة الناس».

المفارقة اللافتة أن حضور المكفوفين في اختراعات مهند كان لافتاً، حتى قبل أن يفقد بصره، يقول: «من الطريف أن آخر اختراعين لي قبل أن أفقد بصري كانا للمكفوفين، وأنا أول من استعملهما بعد الحادث. وبصراحة اكتشفت فيهما أخطاء لم أكن لأعرفها لو أني ما فقدت بصري؛ كان قلماً للمكفوفين، قلم اسمه «ماكدولاين»، هو قلم يكتب دائماً على السطر. هذا القلم أنا اخترعته لطلبة المدارس الابتدائية، وهي مشكلة كانت لديّ منذ كنت صغيراً، حتى قبل أن أفقد بصري، إذ إن كتابتي سيئة، ولا التزم بالكتابة على السطر، حتى إن البعض يقول إن كتابتي بعد أن كف بصري أفضل منها قبل أن أفقده. مشكلة معظم الصغار عدم الكتابة على السطر، وعادة ما تكون قضية الكتابة على السطر، سبباً لقمعهم، وكبح جماح إبداعهم، وهذا القلم يسهل لك الكتابة على السطر، فهو بالمغناطيس يجذب قلمك إلى

السطر، وبعد 23 يوماً من الكتابة به، الطفل يتعود بأي قلم عادي أن يكتب على السطر. والقلم مناسب للمكفوفين كذلك، ويحل لهم مشكلة الكتابة على السطر. الاختراع الثاني الذي هو الـ Stuff Finder. كنت أحاول أن أحل مشكلتي بهذا الاختراع، فإذا ضاعت أغراضي في البيت كيف أجدها؟ واخترعته لنفسي قبل أن أفقد بصري. لأني أنا بطبيعتي إذا دخلت البيت أضع كل غرض من أغراضي في منطقة مختلفة تماماً عن مكانها في البيت. يعني سهل أن تجد جوالي في المايكروويف، و مفاتيحي في حوض السمك، أشياء مختلفة تماماً. فالطريقة الوحيدة كي أجدها كانت عن طريق جوالي. أذكر مرة سألت أمي عن جوالي؟ قالت لي: اتصل عليه. ثم سألتها: طيب أين محفظتي؟ قالت: دق عليها! يا أمي كيف أدق على محفظتي؟ فجاءتني الفكرة، ليش ما أدق على محفظتي؟».

بدأ الاختراع الجميل من حوار طريف، يقول (مبتسماً): «حتى أمي أصبحت تطالب بجزء من براءة الاختراع. باختصار هاتفي الجوال أصبح بالبلوتوث يستطيع أن يجعل كل أغراضي ترن في البيت. وإذا لم

أجد أغراضي... هناك قطعة صغيرة، نلصقها بما نريده أن يرن إذا اتصلنا به، هذه القطعة بلوتوث. هكذا بتُّ أجد كل أغراضي عبر الجوال، فأضغط على كل غرض منها أرسل له رسالة، فيرن بصوت صفير قوي أعرف أنه موجود في المنطقة مصدر الصوت. كذلك يمكن أن يستخدم هذا الاختراع ككاشف لسرقة الغرض. هذان كانا آخر اختراعين لي قبل الحادث، فسبحان الله بعد الحادث استفدت منهما».

عمل مهند على التأسيس لمشروع اختراع ثالث للمكفوفين، ويتحدث عن أن الاختراع: «يجعل للمخترع الكفيف القدرة على أن يرسم رسومات هندسية وهو كفيف. هو منظومة تجعل للكفيف القدرة على أن يرسم رسومات هندسية، بشكل مقنع. لا أقول بشكل يماثل الشخص المبصر، لكن بشكل مقنع لأني أنا الآن أضع أسس تدريس الهندسة للمكفوفين لكوني أول مهندس كفيف في المملكة العربية السعودية، فالشخص الذي يبدأ في الشيء يجب أن يساعد مَن بعده على أخذ نفس السبيل».

9 ـ النبز بالجنون «نجاح»:

كانوا يقولون كل عبقرية لا تخلو من الجنون، ويقول مهند عن ضوضاء التخصص وسخرية الناس والاتهام بالجنون: «إذا ضحك عليك الناس فأنت في الطريق الصحيح، وإذا قالوا أنت مجنون فلقد وصلت. هناك مقولة مشهورة أن كل عبقرية لا بد وأن فيها شيئاً من الجنون. الناس دائما يطلقون لفظ الجنون على الشيء الغريب. والشيء الغريب هذا إما أن يصدر من مجنون فعلاً أو من عبقري. فكون العبقري والمجنون بينهما شعرة، لذلك فالكل يطلق عليهما نفس اللفظ؛ مجنون. فأنا أقول إنني أفكر بأشياء جديدة، والناس حتى يرتاحوا من مناقشة أفكاري يقولون أنت مجنون، ولكن في كثير من الأحيان أُظهر لهم أن هذا الشيء لم يكن جنوناً، وأنه كان حقيقة وواقعاً، مثلما كان يُضحَك على أديسون بموضوع المصباح لأنه، كما يقولون: «مكبّر السالفة». فكان يقول لهم: يوماً ما سيكون لكم طوابير

لتسديد فواتير هذا المصباح، وكانوا يضحكون منه، والذي حصل بعد ذلك أن أديسون كان محقاً، لا يزال الناس حتى الآن يدفعون فواتير المصباح الذي اخترعه أديسون. كلمة مجنون تقال لكل مخترع، وإذا لم يسمع كلمة مجنون فليشعر أنه لم يُنجز شيئاً».

يرفض مهند كلمة إعاقة ويعتبر الإعاقة هي أن لا نستطيع فعل ما نريد، يقول: «أذكر أن شخصاً جاء يقول لي: مهند ما هو شعورك بأنك كنت مخترعاً وأنت الآن معاق؟! كانت المرة الأولى التي أسمع فيها كلمة معاق، توجه لي، وكان الرجل جادّاً. قلت له: المعاق هو من أعاقته إعاقته عن عمل ما يريد. أنا الآن لدي إعاقات لكن هل أعاقتني عما أريد؟ ليس بعد، أعطني فرصة. كان الشعور بأني لا زلت موجوداً، بأني لا زلت مهند، لا زلت مخترعاً، لا زلت مهندساً، لا زال لدي نفس الحلم، لا زلت، لا زلت. هذا كان صراعاً كبيراً بالنسبة لي، والحمد لله تعافيت منه، وتجاوزته».

10 ـ حواجزي النفسية كُسرت:

لا تلبث إلا أن تحترم رؤية مهند للحياة وفلسفته في رؤية الأمور والأشياء بطرق مختلفة ومتعددة: «أشعر أنني أقوى بكثير بعد الحادث. كثيرٌ من الحواجز النفسية في داخلي كُسرت بعدما تجاوزت الحادث. الآن أصبحت أشعر، والحمد لله، وهذه نعمة من رب العالمين، أنني أقوى مما سبق، وأشكر الكثير ممن دعموني من الأشخاص الذين لا أعرفهم ولم أرهم، عبر المنتديات وفي الجرائد، ومنهم أنت أستاذ تركي دعمتني في مقالة فيما سبق أيام الحادث ولا زلت أذكرها حتى الآن، وكثير من الأشخاص الآخرين دعموني في مقالاتهم وفي كتاباتهم، وحتى في رسائلهم في الجوال. أشعر فعلاً أنني لازلت أستحق هذا الشيء، وحتى أحد الأشخاص قبل أيام قال لي: يا مهند لو توقفت سنتوقف كلنا، فلذلك لا تتوقف، إن لم يكن من أجلك فمن أجلنا نحن. فهذا بالنسبة لي جعلني، أنظر إلى الأمام، وأرفض التراجع أو

التوقف، إن لم يكن من أجلي، فمن أجل الناس الذين وثقوا بي، وعلّقوا آمالهم عليّ».

يرفض منطق المؤامرة، وربط حادثه باختراع الغواصة التي لم تكتمل، كما روّج لذلك البعض، يقول: «عندما يسألونني: من دبّر هذا الحادث؟! أقول لهم: دبره العزيز الحكيم، هل لديكم مانع؟! الحادث حادث سير طبيعي وقع في الرياض، مثل مئات الحوادث التي تقع يومياً... البعض كان يقول إن من دبّر الحادث هو الموساد أو المخابرات الأميركية، أو مصادر أخرى. أنا أقول: واللهِ، الموساد والمخابرات الأميركية وكل مخابرات العالم، لا تستطيع أن تدبر حادثاً واحداً من حوادث الرياض. هناك العديد من حوادث شوارع الرياض تحصل يومياً وبطريقة عشوائية وبسبب ثقافة عامة».

يُشَبِّه مهند حال قيادة السيارات في السعودية بـ«ثقافة الغابة»، حين يقول: «ثقافة الغابة، هي ما نراه بصراحة في شوارع مدينة الرياض خاصة، وفي كثير من الشوارع العربية، ثقافة ترك المجال للآخرين تكاد

تنعدم، ثقافة التقيد بالقوانين غير موجودة. أنا صُدمت وأنا أقف على رجليّ، بعض الناس يعتقد أني كنت «أفحّط» بالسيارة وأنني كنت ألعب بسيارتي وأقودها بتهور. أنا كنت واقفاً على قدمَيّ. لم أكن حتى في السيارة أصلاً، ومع ذلك صُدمت. المرور في المملكة العربية السعودية جيد وله قوانين جيدة وإن كانت للأسف تركز على الجباية المالية، وهي لا تردع أصحاب الدخل المرتفع. خلافاً لمشكلة المحسوبيات. اجلس في أحد مراكز المرور لمدة ربع ساعة وستسمع المحسوبيات والعلاقات التي تُخرج توجيه العقوبة إلى الشخص المذنب لتصبح العقوبة موجهة إلى اللاشيء تماماً. ما حصل في الإسعاف من تأخير، ما حصل مع المستشفى المجرم الذي عاملني معاملة، وأنا لا أقول إنه خطأ طبي أبداً. الخطأ هو إذا كان غير مقصود. لكن هذا الشيء كان مقصوداً تماماً».

تلك كانت خلاصة حواراتي مع مهند. هي حواراتٍ أثمرتها تجربته الدقيقة والنادرة، ضمت محاور حياة، وتجارب فذة من شاب خبر الحياة وهو بعد في عز شبابه.

العميان في التراث والأدب

من «تاج العروس»

مرتضى الزُّبيدي (ت 893 هـ/1488م)

عمي: «أي كلتا العينين، ولا يقع هذا النَّعت على الواحدة».

العمى: «ذهاب بصر القلب أيضاً».

تعامى الرَّجل: «يكون في العين والقلب».

العُمية: «الظَّلال أو الكبر».

عُمي: «اسم من أسماء الحر».

الأعميان: «السيل والحَريق».

العَمياء: المرأة «اللجَّاجة في الباطل».

العَماية: «بقية ظُلمة اللَّيل».

من كتاب «المحَبر»

محمد بن حَبيب (ت 245 هـ/895 م)

أشراف العميان: شُعيب النبي، وإسحاق بن إبراهيم النبي، عبد المطلب بن هاشم، عبد الله بن عباس، أبو سفيان بن حرب (ذهبت واحدة من عينيه بغزوة الطائف مع النبي ضد ثقيف، فهو أعور)، أمية بن عبد شمس، أبو قحافة (لعله والد أبي بكر الصِّديِّق)، عمرو بن أم مكتوم (نزلت فيه عبس وتولى)، الحارث ابن العباس بن عبد المطلب، حسان بن ثابت، قتادة بن دعامة السدوسي، دريد بن الصِّمة، عبد الله بن أرقم.

من كتاب «نكت الهميان في كتب العميان»

صلاح الدين خليل الصَّفدي (ت 762 هـ/1361م)

العمى: «نازع الفلاسفة في هذا المتكلمين نزاعاً شديداً. وقالوا إن تقابل السمع والصمم، وتقابل العمى والبصر، تقابل العدم والملكة لا تقابل الضدين. فصل من الناس من قال إن السمع أفضل من البصر. لأن الله تعالى حيث ذكرهما في كتابه العزيز، قدم السمع على البصر: حتى في قوله تعالى صم بكم عمي. فقدم متعلق السمع على متعلق العين، والتقدم دليل الفضيلة. ولأن السمع شرط في النبوة، بخلاف البصر. ولذلك لم يأتِ في الأنبياء ـ صلى الله عليهم ـ من كان أصم. وجاء فيهم من طرأ عليه العمى».

«وللشيخ تقي الدين أبي عباس أحمد بن تيمية رحمه

الله تعالى كراسة في ذلك والله سبحانه وتعالى أعلم. خاتمة الأعمى هل له حظ في الرؤيا أولاً. بعض الناس قال: الأعمى يرى المنامات وبعضهم قال: لا يرى. والصحيح أن المسألة ذات تفصيل. وهو أن الأعمى، إن كان قد طرأ عليه العمى بعد ما ميز الأشياء فهذا يرى. لأن القوة المتخيلة منه ارتسم فيها صور الأشياء من المرئيات، على اختلاف أجناسها وأنواعها. والقوة المخيلة قادرة على أفعالها في جميع الأحوال، إلا أنها لا تتصور الأشياء باختيارها، لأنها ليست قوة إرادية».

«علاوة قال العابرون: من رأى في منامه أنه عمي دلت رؤياه على الغنى وإن حلف يميناً لم يحنث، لقوله تعالى: ليس على الأعمى حرج. ومن رأى أنه أعمى فإنه ينسى القرآن، لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ (طٰه: 125 ـ 126).

ومن رأى أن إنساناً أعماه فإنه يضله. وإن كان كافراً فرأى أن إنساناً أعماه فإنه يزيله عن رأيه. قالوا: والأعمى رجل فقير يعمل أعمالاً لا تضرّ به في دينه

لسبب فقره. فإن رأى كافراً أنه أعمى فإنه يصيب خسراناً أو غرماً أو هماً».

«أنس رضي الله عنه رفعه: من قاد أعمى أربعين خطوة لم تمسه النار».

الاجتهاد في القبلة قال الأصحاب: لا يجوز له (الأعمى) ذلك لأن إمارتها البصر بخلاف أوقات الصلوات حيث يجوز له إذ التوصل إليها ممكن إما بورد أو ذكر أو خطأً يمشيها. ومنها كراهية أذانه إذا كان راكباً إلا أن يكون معه بصير كما كان بلال مع ابن أم مكتوم رضي الله تعالى عنهما».

فحكي عن أبي إسحاق المروزي أن الأعمى أولى، لأنه لا ينظر إلى ما يلهيه ويشغله. فيكون أبعد عن تفرق القلب وأخشع. واختار الشيخ أبو إسحاق الشيرازي أن البصير أولى. وبه قال الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: لأنه أحفظ لبدنه وثيابه عن النجاسات، ولأنه مستقل بنفسه في الاستقبال.

وقد كره ابن سيرين إمامة الأعمى لقول ابن عباس رضي الله عنه تعالى عنهما: كيف أؤمهم وهم يعدلوني

إلى القبلة، وعن أنس قال: وما حاجتهم إليه. وعند عامة الأصحاب أنهما سواء، لتعارض المعنيين. وهو المنقول عن نص الشافعي رضي الله عنه في الأم. ولم يورد الصيدلاني والإمام وصاحب التهذيب شيئاً سواه. ومنها هل يجب عليه الجمعة».

«قال الرافعي رحمه الله تعالى: إذا وجد مع الزاد والراحلة قائداً، يلزمه الحج بنفسه، لأنه مستطيع. والقائد في حقه كالمحرم مع المرأة. ومنها بيع الأعمى بنفسه وشراؤه. إن قلنا بالمذهب الصحيح على القول الجديد: إنه لا يجوز بيع الغائب ولا شراؤه، فلا يجوز بيع الأعمى ولا شراؤه. فإن جوزناه فوجهان. الأظهر منهما أنه لا يجوز. والفرق أنا إذا جوزنا الغائب، ثبت فيه خيار الرؤية. وفي حق الأعمى لا سبيل له إلى خيار الرؤية، إذ لا رؤية البتة. فيكون كبيع الغائب، على شرط أن لا خيار».

نوادر العميان

قال بعضهم لبشار بن برد: «ما أذهب الله كريمتَيّ مؤمن إلا عوضه الله خيراً منهما. فبم عوضك؟» قال: «بعدم رؤية الثقلاء مثلك».

وقال بعضهم: «يقال إن أهل هيت يكون أكثرهم عوراً. فرأيت رجلاً منهم صحيح العينين. فقلت له: إن هذا لغريب! فقال يا سيدي إن لي أخاً أعمى قد أخذ نصيبه ونصيبي».

يقال إن رجلاً أعمى تزوج امرأة قبيحة، فقالت له: «رزقتَ أحسن الناس وأنت لا تدري»، فقال لها: «يا بظراء! أين كان البصراء عنك قبلي؟».

قال بعضهم: «نزلت في بعض القرى وخرجت في الليل لحاجة فإذا أنا بأعمى على عاتقه جرة ومعه سراج. فقلت له: يا هذا! أنت والليل والنهار عندك

سواء! فما معنى السراج؟ فقال: يا فضولي! حملته معي لأعمى البصيرة مثلك، يستضيء به. فلا يعثر بي فأقع أنا وتتكسر الجرة».

قيل إن الأعمش كان يقوده النخعي، وهو أعور. فيصيح بهما الصبيان: «عين بين اثنين»، فكان النخعي إذا انتهى إلى مجامعهم خلى عنه: فقال له الأعمش: «ما عليك؟ يأثمون وتؤجر»، فقال النخعي أن «يسلموا ونسلم».

قالت لأبي العيناء قينة يوماً: «يا أعمى!»، فقال لها: «ما استعين على وجهك بشيء أصلح من العمى».

وسمع محمد بن مكرم رجلاً يقول: «من ذهب بصره، قلّت حيلته»، فقال له: «ما أغفلك عن أبي العيناء؟».

وقال المتوكل يوماً: «لولا ذهاب بصر أبي العيناء لنادمته»، فبلغه ذلك فقال: «قولوا له إن أعفيتني من قراءة نقوش الخواتيم ورؤية الأهلة صلحت لغير ذلك. فبلغ المتوكل ذلك فضحك ونادمه».

كان بحرم سيدنا الخليل، عليه الصلاة والسلام،

شخصان أعميان! أحدهما ناظر الحرم والآخر شيخه. فرام الناظر عزل الخطيب فعارضه الشيخ ومنعه. فقال له الناظر: «كأنك قد شاركتني في النظر»، فقال له: «لا بل في العمى». فاستحى واستمر الخطيب.

ودخل يزيد بن منصور الحميري على بشار وهو واقف بين يدي المهدي ينشد شعراً. فلما فرغ من إنشاده، أقبل يزيد بن منصور على بشار وقال له: «ما صناعتك يا شيخ؟»، فقال له: «أثقب اللؤلؤ». فضحك المهدي وقال لبشار: «أغرب ويلك! أتتنادر على خالي؟». قال: «وما أصنع به؟ يرى شيخاً أعمى قائماً ينشد الخليفة مديحاً، يقول له: ما صناعتك؟».

قال بعضهم: رأيت ببغداد مكفوفاً يقول: «من أعطاني حبة، سقاه الله من الحوض على يدي معاوية»، فتبعته حتى خلوت به ولطمته وقلت له: «يا كذا! عزلت أمير المؤمنين عن الحوض؟»، فقال: «أردت أن أسقيهم بحبة على يد أمير المؤمنين؟ لا ولا كرامة!».

وقال الشافعي رضي الله عنه: «رأيت باليمن أعميين يتقاتلان، وأبكم يصلح بينهما. قلت والأبكم الأخرس».

قال حماد بن إسحاق: «غنى علوية يوماً بحضرة أبي:

فلا تبعد وكل فتىً سيأتي
عليه الموت يطرق أو يغادي

فقال أبي: مه! إن هذا البيت لمغرق في العمى. الشعر لبشار بن برد الأعمى، والغناء فيه لأبي زكار الأعمى، وأول الشعر: عميت أمري».

حكى مسرور الخادم، قال: «لما أمرني الرشيد بضرب عنق جعفر البرمكي، دخلت عليه وأبو زكار عنده يغنيه: فلا تبعد... البيت. فقلت: في هذا والله أتيتك! وأخذت بيد جعفر وضربت عنقه. فقال أبو زكار: نشدتك بالله إلا ألحقتني به! فقلت له: وما رغبتك؟ قال: إنه أغناني عمن سواه بإحسانه، فما أحب أن أبقى بعده. فقلت: أستأمر أمير المؤمنين. ولما أتيت الرشيد برأس جعفر، ذكرت له أمر أبي زكار. فقال: هذا رجل فيه مصطنع. فانظر إلى ما كان يجريه عليه جعفر، فأقره عليه».

شعر العميان

- أنشد الجاحظ لابن عباس:

إن يأخذ الله من عينيّ نورهما
فـفي لساني وسمعي منهما نور
قلبي ذكي وعقلي غير ذي دخل
وفي فمي صارم كالسيف مأثور

- وقال الخريمي:

أسعى إلى قائدي ليخبرني
إذا التقينا عمن يحييني
يريد أن أعدل السلام وأن
أفصل بين الشريف والدون
أسمع ما لا أرى فأكره أن
أخطئ والسمع غير مأمون

• وقال صالح بن عبد القدوس:

عـزاء ك أيـهـا الـعـيـن الـسـكـوب
ودمــعــك إنــهــا نــوب تــنــوب
وكـنـت كـريـمـتـي وسـراج وجـهـي
وكـانـت لـي بـك الـدنـيـا تـطـيـب

• وقال المعري:

سـواد الـعـيـن زاد سـواد قـلـبـي
لـيـتـفـقـا عـلـى فـهـم الأمـور

• وقال بشار بن برد:

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة
والأذن تعشق قبل العين أحيانا
قالوا بمن لا ترى تهذي فقلت
لهم الأذن كالعين توفي القلب ما
كانا

• وقال أيضاً:

قالت عقيل بن كعب إذ تعلقها
قلبي فأضحى به من حبها أثر

أنى ولم ترها تهذي فقلت لهم
إن الفؤاد يرى ما لا يرى البصر

● وقال:

عميت جنيناً والذكاء من العمى
فجئت عجيبَ الظن للعلم موئلا
وغاض ضياءُ العين للعلم رافداً
لقلبٍ إذا ما ضيع الناس حصلا
وشعرٍ كنور الروض لاءمت بينه
بقولٍ إذا ما الشعر أحزن أسهلا

● ومن شعر علي بن عبد الغني الكفيف الحصري:

قالت وهبتك مهجتي فخذِ
ودع الفراش ونم على فخذي
وثنت إلى مثل الكثيب يدي
فأجبتها نِعمَ الأريكة ذي
وهممت لكن قال لي أدبي
بالله من شيطانك استعذ

قالت عفَّفت فعففت قلت لها
مذ شبت باللذات لم ألذ

- وقال:

وقالوا قد عميت فقلت كلّا
وإني اليوم أبصر من بصير
سواد العين زاد سواد قلبي
ليجتمعا على فهم الأمور

وقيل إنه منسوب لأبي العلاء المعري.

- وقال أبو علي البصير الأعمى:

لئن كان يهديني الغلام لوجهتي
ويقتادني في السير إذ أنا راكب
فقد يستضيء القوم بي في أمورهم
ويخبو ضياء العين والرأي ثاقب

من كتاب المحاسن والمساؤى

إبراهيم البيهقي (ت نحو 320 هـ/932م)

«كان الحارث بن قيس الفزاري شيخاً أعمى، وكان له ابن شيعي، وابنة حرورية، وامرأة ترى رأي المعتزلة، وكانوا جلوساً معه، فقام بيده عليهم وجسهم: ثم قال: إن الله عزَّ وجلَّ يحشرني وإياكم يوم القيامة طرائق قِدَداً».

«مرَّ ضرير على رجل بصير فقال: أين الطَّريق؟ فقال له البصير: خُذ يمنةً. فأخذ يمنةً فسقط في بئر. فقال البصير: إنا لله! غَلطتُ، أردت أن أقول: يسرةً، فقلتُ يمنةً! فقال الضَّرير من أسفل البئر: ويحك أهذا ما الغلط الذي يُستقال!».

من كتاب الأديان والمذاهب بالعراق

لرشيد الخيون

الدَّهان أو الواسطي المبارك بن المبارك بن سعيد النحوي الضرير (ت 532 هـ/ 1137م) قد بدل مذهبه عدة مرات، من الحنبلي إلى الحنفي إلى الشافعي، حسب مذهب المكان الذي يجد فيه وظيفة، أو جاهاً، أو قرباً. فقيل: «كان أولاً حنبلياً، ثم إن الخليفة طلب لولده حنفياً يعلمه النحو، فانتقل إلى مذهب أبي حنيفة، ثم شغر تدريس النحو بالمدرسة النظامية، وشرط الواقف (الوزير نظام المُلك) أن لا يفوَّض ما يتعلق بها إلا شافعي، حتى الفراش والبواب، فانتقل الوجيه إلى مذهب الشافعي وتولاه». وقد داعبه مؤيد الدين أبو البركات التكريتي (ت 599 هـ/1203م) بالأبيات الآتية:

فمَنْ مبلــغ عني الوجيه رسالــةً
وإن كان لا تـجــدي إليه الرسائلُ
تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبلِ
وذلـك لـمّــا أعــوزتـك الـمــآكلُ
وما اخترت رأي الشــافعي ديانةً
ولكن لأن تهوى الذي منه حـاصلُ
وعما قليل أنت لا شــكًّ صائـرٌ
إلى مالــكٍ فافطــن لما أنا قائـل

(ومالك المقصود هو حاجب جهنم).

من ديوان محمد مهدي الجواهري

قصيدة «قف بالمعرة» لأبي العلاء المعري 1944:

نَـوِّر لـنـا إنـنـا فـي أي مـنـدَّلـج
مـمـا تَـشـكَّـكـتَ إن صـدقـاً وإن كَـذبـا

ومنها:

تلمَّس الحُسنَ لم يُمدد بمبصرةٍ
ولا امـتـرى درَّةً مـنـهـا ولا حـلـبـا
ولا تـنـاول مـن ألـوانـهـا صُـوراً
يَـصـدُّ مـبـتـعـداً مـنـهـنَّ مُـقـتـربـا

ومنها:

أهـوى عـلـى كـوَّةٍ فـي وجـهـه قَـدرٌ
فسَدَّ بـالـظـلـمـةِ الـثُّـقـبـيـن فـاحـتـجـبـا

ومنها:

هذا البَصيرُ يُرينا بين مُندرسٍ

رثِّ المعالمِ هذا المرتعَ الخصِبا

وللجواهري أيضاً من قصيدة

«أُحييك طه» (1944)

وجدد لنا عهد المعرِّي إنه

قضى وهوى بغدادَ يلذعه لذعا

من نزار قباني في حوار ثوري مع طه حسين

ضـوءُ عينَيْـكَ أمْ هُما نَجمَتانِ؟
كُلُّهـمْ لا يَـرى... وأنـتَ تَراني
لسـتُ أدري مِن أينَ أبدأُ بَوْحي
شجرُ الدمـعِ شاخَ في أجفاني
كُتِبَ العشقُ، يا حبيبـي، علينا
فـهـوَ أبكـاكَ مثلما أبكـاني
عُمْرُ جُرحي... مليونَ عامٍ وعامٍ
هلْ تَرى الجُرحَ من خِلال الدُخانِ؟
نَقَشَ الحـبُّ في دفاتـرِ قلبـي
كُـلَّ أسمـائِهِ... وما سَمَّـاني
قالَ: لا بُدَّ أن تَمـوتَ شـهـيداً
مثلَ كُلِّ العشّاقِ، قلتُ عَسَاني

وطويــتُ الـدُّجــى أُســائـلُ نـفـسـي
أَبِــسَـيْـفٍ... أم وردةٍ قـد رمــانــي؟
كيفَ يأتي الهوى، ومن أينَ يأتي؟
يـعــرفُ الـحــبُّ دائـمـاً عـنـوانـي
صَدَقَ الـموعدُ الـجميلُ... أخيــراً
يـا حـبـيـبـي، ويـا حَـبـيــبَ الـبَـيَـانِ
مـا عَـلَـيـنــا إذا جَـلَـسْــنـا بـرُكـنٍ
وَفَـتَـحْـنــا حَـقـائِـبَ الأحــزانِ
وقــرأنــا أبــا الـعــلاءِ قـلـيــلاً
وقَــرَأنــا (رِسَــالـةَ الـغُـفْــرانِ)
أنـا فـي حـضــرةِ الـعُـصـورِ جـمـيـعـاً
فـزمــانُ الأديــبِ.. كــلُّ الـزّمــانِ..



ضـوءُ عـيـنَـيْـكَ.. أم حـوارُ الـمَــرايـا
أم هُــمــا طـائِـرانِ يـحــتــرِقـانِ؟
هـل عـيــونُ الأديــبِ نـهـرُ لـهـيــبٍ
أم عـيــونُ الأديـبِ نَـهـرُ أغـانـي؟

آهِ يا سـيّدي الـذي جـعلَ الـلّيـلَ
نـهـاراً... والأرضَ كـالـمـهـرجـانِ
اِرمِ نـظّـارَتَـيْـكَ كـي أتـمـلّـى
كيف تبـكي شـواطئُ الـمرجـانِ
اِرمِ نـظّـارَتَـيْـكَ... مـا أنـتَ أعـمـى
إنّـمـا نـحـنُ جـوقـةُ الـعـمـيـانِ



أيّها الفارسُ الذي اقتحمَ الشـمسَ
وألــقــى رِداءَهُ الأُرجــوانــي
فَعلى الفجرِ موجةٌ مِـن صهيـلٍ
وعلى الـنـجـمِ حـافـرٌ لـحـصـانِ
أزْهَرَ البـرقُ في أنامِلكَ الخمـسِ
وطـارَتْ لـلـغـربِ عُـصـفـورَتـانِ
إنّكَ النهـرُ... كم سـقانا كؤوسـاً
وكَـسـانـا بـالـوردِ وَالأقـحُـوانِ
لم يَزَلْ ما كَتَبْتَهُ يُسـكِرُ الكـونَ
ويـجـري كـالشّـهـدِ تـحـتَ لـسـانـي

في كتابِ (الأيّامِ) نوعٌ منَ الرّسمِ
وفــيــهِ الــتــفــكــيــرُ بــالألــوانِ
إنَّ تلكَ الأوراقَ حقــلٌ من القمحِ
فــمِــنْ أيــنَ تــبــدأُ الــشّــفــتــانِ؟
وحدُكَ المُبصرُ الذي كَشَفَ النَّفْسَ
وأسْــرى فــي عَــتــمــةِ الــوجــدانِ

خاتمة

بعد هذه الرحلة مع عالم الظلام المضيء، ومع رحلة قصيرة في عالم البصيرة، أتمنى أن يكون الإنسان أكثر تعلماً من تلك الإرادات الجبارة، التي استطاعت أن تشق طريقها نحو الإبداع والاستقلال في الطموح والحياة، وأن يعلم المبصر قيمة الظلام والخيال الذي يعيشه الكفيف.

وبقراءة تجربة مهند أبو دية الثرية، بحواراتها وصورها المتعددة آمل أن أكون أنصفت هذه الشريحة العبقرية الفذة التي لم تحظَ بالتقدير والاحترام في العالم العربي. ليعلم المبصر أن البصر الذي ينعم به ولا يستثمره في الفائدة والجدوى، في العلم والدراسة والإبداع، هو العمى:

وقالوا قد عميت فقلت كلا

وإني اليوم أبصر من بصير

سواد العين زاد سواد قلبي ليجتمعا على فهم الأمور

تجربة مهند أبو دية، وكل الذين استشهدت بأسمائهم من التاريخ الإسلامي والعربي، وصولاً إلى العصر الحاضر، كلهم كان لهم أكبر الأثر في تكوين مادة هذا الكتاب، الذي اخترت أن يكون تدويناً لتجربة لم تنتهِ، بل ستستمر معي في الدخول إلى عوالم المكفوفين الغنية، وما أقل الذين يبصرون ببصائرهم في وقت يظن أغلبية الناس أن البصيرة بالبصر. هذا هو الفرق، أن نبصر بالبصيرة لا بالبصر وحده.

أتمنى أن أكون قد منحت القارئ في هذا الكتاب ما يجد فيه المتعة والحكمة. طابت أوقاتكم، وطابت لكم الحياة.

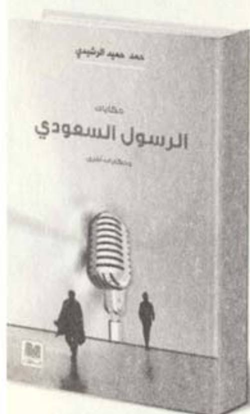
تركي الدخيل

من إصدارات مدارك Madarek




















المرأة
والولاية العامة
بين الفقه الإسلامي والقوانين العربية


السيد علي الأمين
ولاية الدولة
ودولة الفقيه


السيد علي الأمين
الأحزاب الدينية


صورة أوروبا
في
الأدب العربي الحديث
من طه حسين إلى الطيب صالح


تشيع العوام
وتشيع الخواص
السيد أحمد القبانجي


حكاية اسمها
غازي القصيبي
إعداد
كمال عبد القادر


أمريكا
في مرآة عربية
صورة أمريكا في أدب الرحلات العربي
ما بعد 11 سبتمبر 2001


أمريكا
في مرآة عربية
صورة أمريكا في أدب الرحلات العربي
1668 - 1995


كنا في إسرائيل
رحلات مصرية
منذ 1956 وحتى 2008


تركي الدخيل
الدنيا... امرأة!


سلمان العودة
من السجن إلى التنوير
تركي الدخيل

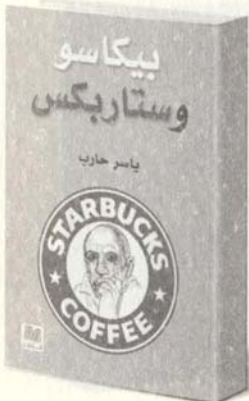

تركي الدخيل
إنما نحن... جوقة العميان


المجتمع
الأحسائي المعاصر
قراءة في طباعه وأفكاره


نازح من جازان
مفاجآت التمرد الحوثي
على الحدود السعودية
هادي فقيهي


تغطية العالم!
بدعة الإلزام بتغطية الوجه
أحمد السيد عطيف


خَارِجُ الطَّائِفَة
د. علي أحمد الديري


بيكاسو
وستاربكس
ياسر حارب
STARBUCKS
COFFEE


عبدالله المغلوث
كخه
يا
بابا


رشيد الخيُّون
عمائم سُود
بـ
القصر السّعودي
انطباعات شخصية عن نجد والحجاز


تَلخيص البَيَانِ
في ذِكْرِ
فِرقِ أَهْلِ الأَديانِ
رشيد الخيُّون


رشيد الخيُّون
بَعد إذنِ الفَقيه
الحرام والحَلال في أمر النساء
والطفولة والكتابة والطعام


رشيد الخيُّون
لا إسلام بِلا مَذاهِب
و
طُرُوس أُخَر مِن التراث


رشيد الخيُّون
ضد الطَّائفيَّة
العراق... جدل ما بعد نيسان 2003


رشيد الخيُّون
رسالة
في العلمانية والخلافة


رشيد الخيُّون
جَدَلُ التَّنْزِيلِ
مع كتاب
خلق القُرآنِ للجاحظ


رشيد الخيُّون
مُعْتَزِلَة
البَصرَة وبَغْدَاد


الحب والفراق
إنه محمد عبده يماني
كمال عبد القادر


أعمدة الضحك السبعة
علي سالم


التطرف وثقافة السلام
علي سالم


الضحك في عز النكد
علي سالم
إذا كنت مسافراً خذني معك


علي سالم
بكالوريوس في حكم الشعوب


اعترافات زوج
علي سالم


دلال...
رحلة ألم وأمل وفراق

«هذا الكتاب رحلة في حدائق المكفوفين المزهرة، حيث يكون الخيال بديلاً عن الواقع».

وبالتالي:

«يكون المكفوفون بمأمن من مشاهدة المساوئ، فقط حين يتخيلون العالم كما يرونه في دواخلهم فيبدون أنقياء... ويا لله، كم هو في غاية البلاغة حين تتأمل قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾».

ورُبَّ قائلٍ:

يا لله، كيف ينبش المؤلِّفُ الموضوعات من زوايا الظل الاجتماعي، يلاحقها دون أن ينهكها لتصبح نموذجاً أو رمزاً، يستحيل التغاضي عنه.

مهند أبو دية الذي -«عبقريته تسكن النور»- هل يمكن التغاضي عن نموذجيته؟ أم يجب الانطلاق كُرْمَى لعينيه، لإضاءات معاصرة على عالم المكفوفين، كل المكفوفين، ابتداءً من بشار بن برد وأبي العلاء و بورخيس وطه حسين وليس انتهاءً بالتجربة الرائدة المتمثلة بالمطاعم التي يديرها كوكبة من المكفوفين لنعيش معهم تجربة عالم الظلام بكل ما فيها من روعة وغرابة.





مدارك Madarek
إبداع، نشر، ترجمة وتعريب Creating, Publishing, Translating & Arabizing